



رواية

يوم الدخلة

ياسر سليم

يوم «الدُّخْلَة»

رواية

ياسر سليم

وزارة الثقافة



تعنى بنشر الأعمال الإبداعية
ليدعى مصر المتحققين

• هيئة التحرير •

رئيس التحرير
سيد الوكيل
مدير التحرير
سيد شحاتة
سكرتير التحرير
محمود أنور

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة
بل تعبر عن رأي المؤلف وتوجهه في اللقائ الأول.

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن
كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

سلسلة

حروف

تصدرها

الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة

سعد عبد الرحمن

أمين عام النشر

محمد أبوالمجد

مدير عام النشر

إبتهال العسلى

الإشراف الفنى

د. خالد سرور

• يوم "الذخلة"

• ياسر سليم

• الطبعة الأولى:

الهيئة العامة لقصور الثقافة

القاهرة - 2013م

135 × 195 سم

• تصميم الغلاف:

د. خالد سرور

• المراجعة اللغوية، محمد منصور

• رقم الإيداع: ٢٠١٢/٢٠١٢٥

• الترقيم الدولى: 0 978-977-718-537

• للرسائل:

باسم / مدير التحرير

على العنوان التالى: ١٦ شارع أمين

سامي - قصير العيسى

القاهرة - رقم بريدى 11561

ت، 27947891 (داخلى، 180)

• الطباعة والتنشيط:

شركة الأمل للطباعة والنشر

ت، 23904096

يوم «الدُّخْلَة»

(١)

نعم إنه نفس المكان، تماماً نفسه، ذات البقعة في ميدان التحرير
التي كان يمر بها -على دراجته- العجوز منذ ربع قرن هاتفاً ضد
الرئيس هتافات تشي بأنه مجنون .

عندما اكتشفت أنني أقف فوقها تماماً، يوم الجمعة الحادى عشر
من فبراير من عام ٢٠١١، نويت أن أهتف بهتاف العجوز الذى يرن
فى أذنى ويتعالى صده الآن عابراً ربع قرن من السنين، وحاولت
عبور المنطقة المحايدة التى سقطت فيها منذ بضعة سنوات، حاولت أن
أجمع شتات حماسى القديم وحبى الذابل لوطنى، مندداً به ومدندناً
بها بينى وبين نفسى لأجرب طاقتى القديمة المعطلة عن الهتاف، ولم
تفلح كل تلك الثورة البهية، هذه الملحمة العظيمة المشتعلة على
مدى ١٨ يوماً فى أن تفك عقدة أحبالى الصوتية، وقلت إننى

سأجرب هذا الهتاف قبل أن أنطلق بالغناء بها وسط دائرة الثوار من
أصدقاء ابني :

"قول ولا تخش القول قول .. الرئيس هو المخبول"

ثم سأقول لابنى الغالى الذى لم يعد يرانى سوى بعين واحدة ،
"إن أغنيته تلك يا بنى هى الباقية فى ذاكرتى منذ ربع قرن ، لم
أنسها وادخرتها ليوم مثل هذا" :

"قول ولا تخش القول قول .. الرئيس هو المخبول"

وكان -قديماً- شيخ فى الستين من عمره يهتف بها مزلزلاً
أنفسنا المترعة بالخوف ، كأنما جاء من بلاد لا تعرف الجبن ، ثم يمضى
بدراجته مبتعداً عن أنظار راكبي الأتوبيس الذى يلوون أعناقهم
ناحيته ، مبدلين امتعاضاً زائفاً .

كل صباح ، كنت أراه فى ميدان التحرير ، فى طريقى إلى دار
النشر التى عملت بها مترجماً منتصف الثمانينيات بعد فصلى
من عملى كمعيد بالجامعة ، وأنا أركب الأتوبيس المتهالك الذى
يزحف متثاقلاً مكدساً بالبشر كريهى الرائحة ، أظل أتابع
العجوز حتى يمرق فى الزحام كشهاب فى ليل لوحة عشوائية
جامدة كئيبة ، خلفيتها جامعة الدول العربية ثم المتحف المصرى ،
ثم يمر العجوز أمام الأتوبيس ليغير الناحية الأخرى ، لتظهر
خلفيات أخرى فى اللوحة المقبضة ، حيث مسجد عمر مكرم
الجنائزى ، ثم وزارة الخارجية ، وبينهما تلوح من بعيد السفارة
الأمريكية .

كل يوم، فى نفس التوقيت تقريباً، يمر أمام ناظرى مثل كائن أسطورى، بلا رائحة جسد تنضح بالعرق، وبلا فم يفوح برائحة الجوع، ضجيجہ المدوى الذى يشق صمت الميدان، يظل يطن فى أذنى لساعات حتى أنهار مكدوداً على سريرى الحديدى الصدىء فى الشقة المفروشة فى منطقة "أبو أتاة" الصاخبة بالفوضى والمخدرات والبلطجية، وروائح الأكلات الشعبية المنطلقة من الشبابيك المفتوحة على بعضها، واختلاط طشة الملوخية مع شهقة امرأة يعابثها زوجها، وسط صراخ رجل مصاب بالبله المغولى، ونباح كلب عقور محبوس أعلى البيت، ودعاء أم لابنتها العاقبة.

أسمع طقطقة باب الشقة و"منعم" يدخل مكفهر الملامح، يخلع ملابسه فتمتلئ الغرفة الضيقة برائحة عرقه التى اختلطت بروائح آخرين، ثم يضع على المنضدة الخشبية الصغيرة ساعته واشتراك الأتوبيس، بجوار كارنيه نادى الصيد الذى يعمل فيه محاسباً، ثم يزفر عندما يجد الطعام غير مطهى جيداً كالعادة، وكأنما قد فوجئ بما هو معتاد، وهو الذى يقول لى: البلد دى ما بتتغيرش.

كان "منعم" يعتمد علينا أنا ومنيب -اللذين نقاسمه غرفتنا ذات المترين المربعين- فى تحضير الطعام له، ولو كان "منيب" هنا لكتم غيظه ريثما يدخل "منعم" الحمام، ثم انفجر صارخاً فى وجهى:

— هو فاكرا انه متجوزنا؟

يعود "منعم" من الحمام ووجهه يقطر بماء الوضوء، فأسأله: يعنى ممكن تكون الزحمة زادت شوية؟

يرد : أبداً ، كل شيء زى ما هو من خمس سنين ، يمكن الكبارى بس هى اللي بتغير ملامح المكان ، وبعد خمستاشر سنة ربنا يحيينا ، أراهنك هتكون نفس كل حاجة زى ما هى .

أسرح محملاً فيه ، ينقبض قلبى ، هل سيحل علينا عام ٢٠٠٠ ليتحقق قول "منعم" ، كل شيء كما هو ؟
أحاول أن أنام نوم القيلولة ، فيبادرنى "منعم" :

- منيب فى الشغل ؟

أهز رأسى علامة الإيجاب ، ثم أستيقظ على نداء "منعم" على الحاج "على" صاحب البيت ، ليسلمه إيجار الشهر مبكراً قبل مواعده بأيام ، أندesh فينظر لى مبتسماً :

- أصل باعمل حكاية الإيجار دى حجة علشان أفكره بخدمة كنت كلمته عليها ، خدمة يعملها لى باعتباره عضو فى أمانة الحزب الوطنى فى بولاق ، وعلاقاته كويسة مع قيادات المحافظة ، بصراحة عايز أشتغل محاسب فى المحافظة ، أو أى شغلانة حكومية كبيرة ومحترمة ، خلاص قرفت من القطاع الخاص وبلاويه .

تململت فى فراشى ، ولفت نظرى كارنيه غريب بين كارنيهات "منعم" المنشورة بلانظام على المنضدة الخشبية المتشققة بجوار سريرنا ، ودفعنى فضولى لأن أمد يدى وألتقطه ونظرت مندهشاً ثم انفجرت ضاحكاً :

- كارنيه الحزب الوطنى يا "منعم" ؟

غمغم فى ضيق :

٠ - الحاج "على" نصحنى باستخراج كارنيه عضوية الحزب كإجراء شكلى علشان يزكىنى للوظيفة كعضو فى الحزب .

قلت بصوت تقطعه فهقهتى :

- طب وأخوة الجماعة الإسلامية عارفين يا أخ "منعم" ؟ طب وحبائبك فى أمن الدولة ، هتعدى عليهم حركة الاختراق الخطيرة دى ؟

قال وقد بدا عليه غضب بالغ :

- قلت لك ده إجراء شكلى ، مش أنا اللي أتخلى عن عقيدتى علشان وظيفة ، وبعدين أمن الدولة مالهاش دغوة ، أنا ماليش ملف عندهم .

ثم اقترب "منعم" منى كثيراً وقال بصوت بائس وكأنه يودع الدنيا :

- بص فى عينيا ، الاصفرار زاد ؟

قلت بإشفاق اعتيادى من كثرة تكراره :

- ياعم يا موهوم ، انت زى الفل ، لا التهاب كبدى وبائى ولا يحزنون .

قال منكسراً :

- لا ، لا ، أنا حاسس بنفسى ، أنا تعبان ، باحس بإرهاق من أقل

مجهود .

ثم أخرج من حقيبته كيساً أبيض شفافاً بداخله كائن غريب يشبه السحلية ، فرعت منه ، ثم أدركت أنه محنط على ما يبدو ،

وجاء "منعم" بطبق ويد مصحنة، ووضع الكائن وأخذ يدق رأسه .

قلت مندهشاً :

- بتعمل إيه ؟

قال :

- باطحن "السقنقور" ؟

قلت ضاحكاً بسخرية :

- وما "السقنقور" ؟

قال جاداً :

- كائن بحرى مفيد لصحة الكبد ، نصحنى به صديق عزيز .

استطردت ساخراً :

- يا موهوم .

ثم جاء بكوب به ماء مغلى ، ووضع فيه مسحوق السقنقور ،
وقلّبه حتى بدا أنه ذاب ، ثم أخذ يتجرعه ولا يكاد يسيغه ، وأنا أكاد
أفرغ ما فى بطنى .

فى هذه الليلة ، خشيت أن أبيت فى الشقة ، مخافة أن يموت
"منعم" بعدما رأيته بألم عيني وملامح وجهه تتقلص وتتلون ، ثم ازداد
وجهه اصفراراً ، واستلقى بعدها فجأة على سريريه ، وتمدد بلا
صوت ، وظننته يخرج روحه بهدوء حتى ارتفع شخير فاطمأنت ،
وارتديت ملابسى وخرجت .

فى غرفته التى استضافنى بها صديقى الذى يدرس الطب بالمدينة
الجامعية التابعة لجامعة القاهرة ، قررت بعد تردد أن أسأله عن

السقنقور فقلب في كتاب عن الأحياء البحرية ثم قال :
- ده كائن بحرى يقال إنه له تأثير على تنشيط القدرة الجنسية
للرجال .

سألته مفزوعاً :

- طب والكبد ؟

قال :

- مالوش علاقة .

سرحت مهموماً أفكر في مصير " منيب " الراقد الآن مهدوداً بعد
يوم عمل طويل ، لا يستيقظ بسهولة عادة ، ثم تمتمت شاكراً الله
أنى لست موجوداً الليلة بالغرفة .

تلك اللعوب التي تركتها منذ ١٨ يوماً ممددة على سريري في شقتي بمدينة "الشروق"، استدعت ما كنت قد خبأته في تجويف ذاكرتي، عندما قابلتها ليلة الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١ :

السقنقور و"منعم" وتلك الإثارة التي بثتها في عروقي، عندما شممت رائحة عرق حريمي مختلف ومختلط بعطر نفاذ ردىء، مثل ذلك العطر الذي كنت أشمه قديماً، والإثارة التي تسرى في بدني حينما كنت أندس بين الأجساد في الأتوبيس.

تدافعت كتل الذكريات على مخيلتي في هذه الليلة، ليلة ٢٥ يناير، حينما اقتربت منى ونحن في سيارتي على كوبرى الدائري، وقالت :

- استنى أشيل لك شعر مناخيرك اللي طالع، إيه ده، كل ده شعر؟

قالتها بشقاوة وهى تسحب خيطاً صغيراً من فستانها، وبرمتها
بطريقة جعلتها مثل حرف T فى الإنجليزية، ثم مالت على متفادية
ذراع الفرامل اليدوى فى سيارتى، تختلط أنفاسها المثيرة بأنفاسى
الساخنة، لتلتقط شعيرات أنفى وأنا أفتعل الصراخ، بطريقة دفعتها
للقول وهى تغمز بعينها بميوعة:

- الآهة دى مش بتتقال كده ولا هنا.

قلت:

- أمال فىن وإمتى؟

قالت بنبرة ذات مغزى رقيق:

- مش هنا وخلص.

قلت بأسى:

- يا حسرة علىّ، خلاص بقيت كُهنة، إحنا سيبنا الحاجات دى

لعيالنا.

قالت بسخرية:

- يا حرام، ليه كده؟

- أصلى داخل على الخمسين، يعنى عمرى الافتراضى انتهى.

ثم أردفت وأنا أميل عليها متودداً:

- ماعندكيش لى واحدة لونة ومقلوطة وجبوبة وحلوة ودمها

خفيف وصغونة، ترجع لى شبابى.

- موجودة بس فى الحلال.

- وهو حد قال غير كده.

- موافقة .

داعبتها مازحاً :

- موافقة ليه ؟ وانتى مالك يا "فاتن" ؟ أنا باقول لك تشوفى لى واحدة بالمواصفات دى .

غضبت هى فقلت لها :

- باهزر معاكى يا مزة ، هو أنا أطول واحدة فى جمالك ولا فى شقاوتك ، ده انتى هترجعينى ابن عشرين سنة .
استدركت وكأنا نسيت :

- طب ومراتك ، هتعرفها ؟

- لا طبعاً ، هاتقلب حياتنا جحيم ، واحنا عايزين نستمتع .
سرحتُ ، وتأملتها ملياً : البنت جميلة وراغبة ودافئة ، وتريد الستر سعياً إليه بوسائل أنثى ساذجة ، لا يهم ، أنا أريد منها المتعة وهى تريد النفقة ، بعد أن أدركت أنه لا أحد سيقبل على الزواج بها ، وهى الفقيرة المعدمة ، بلا وظيفة ولا أهل ذوى مال أو منعة ، وأحد الخسنيين قام بدفع تكاليف عملية استئصال رحم لها ، عندما اكتشفت أنها مصابة بسرطان الرحم ، ولهذا فقدت كل أمل فى أن تكون أمّاً ، وانخفضت بالتالى فرصها فى أن تكون زوجة ، إلا كزوجة لزوج آخر مثلى لا يريد أولاداً ، لقد كانت امرأة لُقطة ، وأنا الذى كنت أبحث عن زوجة بمواصفات مستحيلة : الجمال والعذرية والسن الصغير ، باختصار امرأة عشيقة لا تنجب ، وها هى تأتينى كممثل إبرة فى رمال الصحراء الغربية ، لكنها تأتينى ومعها ذكريات

"السقنقور" ورائحة عطر وعرق النساء السمينة اللزجة في أتوبيسات القاهرة المزدهمة، وأنا لا أحتاج السقنقور في ظل توافر المال اللازم لشراء أصليّة والحمد لله، ثم ما حاجتي للمقويات؟ ولكن هل يعد أدائي مع زوجتي -التي انخفضت لقاءتي بها حتى انعدمت- كمقياس للمعدل المتدهور لفحولتي؟ لا بأس إن احتاجت تلك الصغيرة لأن أستعد كل مرة لها بقرص مقو.

تنبّهت من تدفق أفكارى على نقر على زجاج سيارتي، نظرت بامتعاض إلى صاحب الأنامل الغليظة، وأنزلت زجاج سيارتي الكهربائي قليلاً، فقال لى باقتضاب وجهامة:

- بوليس الآداب .

فتحت باب سيارتي، ونزلت منزعجاً، وتحدثت به جانباً، وأبرزت له بطاقة عملي المثبتة بها وظيفتي كموظف في مكتب وزير الاتصالات، فالتقطها وابتسم وبدأ أنه سيستغلني كعادة أمثاله من المبتزين من أصحاب السلطة لأصحاب المناصب :

- طب سعادتك أنا ابني معاه هندسة اتصالات، وكان عايز يشتغل في شركة الاتصالات.

- بس أنا مش صاحب شركة، أنا حيا لله موظف في مكتب وزير الاتصالات.

رمقني غاضباً وقال :

- لكن بصراحة كده، انت كنت بتبوسها . صح؟

- أبداً، دى مراتي وكانت بتنتف لي شعر مناخيري .

نظر لى وكأنى معتوه أو ساذج ثم انفجر ضاحكاً، وقال :

- كلكم بتقولوا مراتى، بس أول مرة حد يقول الحجة بتاعة
النتف دى .. يا بيه، يا بيه قول كلام غير ده وأنا أصدقك .

ملت عليه وكأنى لا أريد لأحد أن يسمعنا رغم أن كوبرى
الدائرى كان شبه خال من المارة باستثناء بعض السيارات التى تفر
بسرعة فائقة، وقلت هامساً :

- شوف، أنا عارف إن الواحد لو ياس مراته فى الشارع
بتدفعوه غرامة، لكن صدقنى دى فعلا مراتى، ووالله ماكانت
بتبوسنى .

- ومراتك هتنتف لك مناخيرك فى الشارع ليه؟ هه، طب ما
البيت موجود .

- دى مراتى الثانية يا جدع، وبعدين لو انت عملت لى أى إجراء
هتسبب فى خراب بيتى الأولانى .

استمر يرمقنى بنظرته ففهمت وقلت :

- ابعث لى ابنك بكره أحاول أساعده .

ودفعت له بكارت فيه كل أرقامى وإيميلاتى، فقال :

- مش هابعته بكره علشان القلق اللى احتمال يبقى موجود فى
البلد بمناسبة مظاهرات ٢٥ يناير .. هابعته بعد بكره .

ثم أردف بقلق :

- هو يا بيه ممكن تحصل حاجة فعلا زى "تونس" .

قلت بثقة :

- أكيد، وهتشوف، هم يقولوا إن إحنا مش تونس، بس إحنا هنطلع أجدع منهم.

ازداد قلق الرجل، ورف في عينيه سؤال طالما رأيته في أعين الذين أواجههم بكلماتي المعارضة للنظام، نظرة تعجب من كونى موظفاً في مكتب وزير ثم أبحراً على أن أقول مثل هذا الكلام، والحقيقة التي كنت أعتقد أنها يقينا في هذا اليوم أنني كنت واثقاً من حدوث تجمع كبير من عدة مئات ستترعد له الشرطة في عيدها الموافق الخامس والعشرين من يناير، وفقط لأننى تشربت منذ زمن قناعة صرخ بها في وجهى أديب كبير مخمور ونحن جالسان في مقهى "الجريون":

- الشعب ده ملعوب فى أساسه؛ انسى، ده شعب ولا مؤاخذاً يعنى.

وبنفس ثقتى فى أن شيئاً كبيراً لن يحدث غداً، كانت لهجتى واثقة وأنا أبشر الشرطى بكارثة ستحل بهم، كنت أريد أن أصدر له القلق الذى ألقاه فى روعى منذ قليل.

واستدعى مشهد الرجل وعيناه سارحتان، عيني ثعلب يرتدى ملابس مدنية، بينما هو شرطى سرى فى جهاز مباحث أمن الدولة، كان قبل عام ٢٠٠٥ يراقبنى واقفاً على سلالم نقابة الصحفيين، أهتف وسط نحو خمسمائة من المثقفين المناضلين من التيارات كافة المنخرطين حديثاً فى حركة جامعة للأشواق اسمها "كفاية":

- كفاية.. حرام، يسقط يسقط الرئيس.

السقنقور، وكفاية، ومنعم، ومخير أمن الدولة، ما بال هذه الليلة
تجر لي ذيولاً أريد أن أقطعها حتى لا يتصل ماضى النعس بحاضرى
المستريح، وكدت أقول لشرطى الآداب لا تقلق يا عزيزى، دولتكم
قوية، وقد جاءنا أحد أكابر وزارتكم منذ أيام فى مقر وزارة
الاتصالات، وأبلغونا بالاستعداد فى أية لحظة لتلقى أوامر بقطع كل
خدمات الاتصالات والإنترنت عن المصريين، واستجبنا جميعاً بلا
تردد، وخرجت من مقر الوزارة بين الرفاق أتمس صدرى مندهشاً
كيف لم يضق؟ كيف تلقيت ما جرى بضمير محايد، لم أثر، لم
أغضب، لم أعترض، كما لو كان ما يجرى يحدث لأحد غيرى، فى
بلد آخر، لو أن ما تم قد حدث منذ خمس سنوات أو يزيد، لكنك قد
ضربت مائدة الاجتماع بقبضة يدي معترضاً، ثم قلبتها فى وجوههم،
وخرجت لا أعاباً بالعواقب، أو هكذا كنت أتمنى أن أفعل.

أعاد شرطى الآداب لى بطاقتى باحترام مبالغ فيه، ومضى ينقر
زجاج سيارات أخرى، وبدون كلام خرجت له من نافذة السيارة ورقة
من فئة الجنيهات الخمس، دسها فى جيبه، ومشى إلى سيارة أخرى،
وندمت على أننى لم أفهم ولم أفعل مثل الباقيين، وقلت إنى -رغم
ادعائى الفهم- لم أفهم بعد بعض الناس وجُل السلطة.
قالت لى "فاتن" بعد أن أيقنت أن الشرطى قد ابتعد بما فيه
الكفاية:

— هى شقة "الشروق" بعيدة قوى؟ أصل كنت محتاجة أعاين قبل
ما ترتبط يمكن ما تعجنيش؟

كلامها كالعادة يحمل معنيين، طريقتها فى الكلام تؤكد أنها تقصد أن تعاین قدراتى الجسمانية لأن مثلى ممن هم فى الخمسينيات، يكونون منخفضى القدرة، فضلاً عن انعدام الجودة فى الأداء، ولو كنت سألتها عما تريد أن تعاینه بالضبط لقالت فوراً "الشقة" رغم أن عینيها كانتا تقولان إنها تقصد معاینتى شخصياً، لأنهما تنضحان بالرغبة.

- أيوه بعيدة.

وكنت لا أريد أن ألوث شقتى، مأوى الوحيد الذى أملكه بعيداً عن فيلا زوجتى، فلقد عاهدت الله على ألا تدخله إلا زوجة تعوضنى حرمان السنين من امرأة أحبها لذاتها، لا لعقاراتها، ولا للأمان الذى توفره لى عبر عائلتها الثرية صاحبة الأملاك والأعمال، كحال زوجتى، زوجتى الحالية التى اخترتها لأن لديها فيلا فارغة فى حى راق، لم أستطع أن أحبها -زوجتى- رغم أنها تحبنى لدرجة الجنون، أو هكذا كانت حتى وقت قريب.

ومنذ سنوات قليلة، عندما دخلت شقتى لأول مرة، سجدت لله شكراً، فقد كان حلم عمرى منذ سنوات طويلة أن تكون عندى شقة محترمة أمتلكها، أمتلكها منفرداً وباسمى، بعد أن حاصرنى الحرمان من مأوى أملكه، وكان قدراً سماوياً ظل يتعقبنى بالحرمان من مسكن ملكى، عقاباً على طمعى فى مسكنها، مسكن زوجتى، فلم أظفر لوقت طويل، لا بالشقة التى أملكها، ولا بالمرأة التى أحبها وطوال عشرين عاماً، لم أستطع أن أذكر ما يمكننى من شرائها،

فكلما ادخرت مبلغاً أجده لا يكافئ الأسعار المتزايدة باضطراد، كنت كمن يسابق صاروخاً، أما من تستحق أن أحبها، فلم أعثر عليها طوال بحثي الطويل، وعندما يست من لقاءها، كانت قدرات زوجتي على إسعاد جسدى فقط - تلك التى كانت تفعلها - قد ذبلت، فاكتفيت بالبحث عن تكفينى حاجتى الجسدية - لا العاطفية - بالحلل، وحتى هذه لم أجدها إلا فى مطلقة ترغب فى السر، أو أرملة تبحث عن الأمان، ومعظمهن يظهرن فى حياتى بأطفالهن وعُقدهن من فرط ما رأين من رجال أنذا لشرهين مترعين بالشهوة، فمثلهن يظللن هدفاً ثميناً وصيداً سهلاً لراغبي المتعة العابرة، ثم أجد الواحدة منهن تسألنى، ونحن نتفق على التفاصيل، عن عدد الأطفال الذين سننجبهم، لماذا الأطفال وعندى وعندهن من الأولاد ما يروى ظمأ الأبوة والأمومة؟

ظلمت أترنج، حتى ظهرت "فاتن" .. تلك المثيرة الصغيرة اللقطة العذراء، عذراء؟ غالباً عذراء، رغم ما أبدته ليلة الخامس والعشرين من يناير من تدلل ورغبة مفضوحة، فهل فعلتها من قبل مع رجال آخرين؟ ربما تكون قد استجابت سريعاً لمحاولاتهم استدراجها لممارسة الجنس، إلى درجة ما، جنس سطحي كالمراهقين، فهى تبدو محتشمة فى مظهرها، وهو ما يهدئ مخاوفى تجاه ماضيها الذى أجهله وحاضرها الذى أعلم عنه القليل، تلك المثيرة الصغيرة البائسة التى انتزعتنى من أفكارى قائلة:

- طيب نشوفها بكرة؟

- ممكن ، بعد ما نكتب ورقة العرفى عند الخامى .

وانطلقت بسيارتى كأنما أفر من مكن قلق سيطر على المكان حيث كنت أقف ، وأرجعت سببه إلى خوفى من مباحث الآداب ، أو من أن تعرف زوجتى يوماً بالأمر فتطربنى من حياتها ، وكنت أرتعب من هذه الفكرة فى الماضى ، لأننى بلا مأوى ، أما وقد امتلكت المأوى ، فلا خوف ولا قلق ، وغداً سأكسر مع "فاتن" آخر جدار خوف بنته حاجتى إلى زوجتى كسكن ومسكن ، بعدما تحررت منها من قبل كمصدر للرزق ، الرزق الذى كان مصدره الوحيد قبل سنوات هو شركة أبيها .

(٣)

الناس سعداء جداً هنا بالميدان، رغم قسوة التفاصيل اليومية للحياة، فالطوابير الطويلة -طول ١٨ يوماً من الانتظار الثقيل- لا تنتهى، عند حمامات مسجد "عمر مكرم"، أجدنى غير قادر على احتمال مثل هذه المتاعب، أريد أن أغتسل من نجاسة معاشرتى لـ"فاتن" إذا جاز أن أسمى ما جرى من جنس سطحى معاشرة، معاشرتى التى تمت ظهيرة الخامس والعشرين من يناير، لكننى لا أحتمل الطوابير والماء البارد فى شتاء يناير، وأنا الذى تعودت على ما هو أسوأ منه قبل ربع قرن، حينما اندفعت يوماً منسرعاً ناحية حمام شقة "أبو أتاة"، فوجدت بابه مغلقاً وصوت تغوط الدكتور "عثمان" ينبعث غليظاً خشناً من داخله.

- والنبى يا دكتور "عثمان" تخرج بسرعة المرة دى، محتاج الحمام بسرعة يا خويا.

رد "عثمان" بكلام كثير لم أفهمه ، حيث غطى عليه صوت
تغوطه الذى أخذ يتعالى ويتسارع ، وانتبهت لكلمة "أخويا" التى
أتلفظ بها لأول مرة متأثراً بما قاله لى ضابط أمن الدولة فى نفس
تلك الليلة ، بمقره بـ "جابر بن حيان" ، حينما ربت على كتفى قائلاً :
- أخويا لو شاف حاجة فى المنطقة ولا فى الشغل أكيد
هيقولها لى على طول .

لم أرد عليه وقتها ، خشيت التورط فيما لا ينفع معه الرجوع ،
وكان قد استدعانى عن طريق "على" مالك المنزل الذى نقيم فيه
وعضو الحزب الوطنى ، ويبدو أن "على" هو الذى أبلغه عنى بعدما
قرأ فى بطاقتى الشخصية أننى من مواليد محافظة "أسيوط" المكتظة
بأعضاء الجماعة الإسلامية ، الذين قاموا مؤخراً بالانتقام لمقتل أحد
قياديينها ، باغتيال أحد السياسيين .

خرجت ليلتها من عند الضابط بعدها مرتبكاً ، ثم أُلقيت بجثتى
المنتفضة بالتوتر فى أول أتوبيس مزدحم ، أبرزت اشتراك الأتوبيس
"الأبونيه" للكمسارى ، والتحمت بالركاب وانتبهت إلى أننى
نسيت فى غمرة ارتباكى أن أضع فى جيبى ليمونة نسميها نحن
ركاب الأتوبيس "لمونة تيس" ، لاختبار مدى ثبات النساء فى
الأتوبيس ، بالوقوف وراءهن بالجانب ، فإذا لم تبد اعتراضاً ، اعتدلنا
منتصبين لنقف وراءهن تماماً ، حتى يقضى الواحد منا حاجته
السطحية التى تنتهى بارتعاشة شبه ملحوظة ، يحفظ علاماته
الكمسارى ورواد الأتوبيس .

ليلتها، بعد خروجي من مبنى أمن الدولة، صعدت ورائي مباشرة فتاة سمراء بعباءة شفافة بيضاء، أخذت تردد بصوت عال وبلهجة ريفية مثيرة أن هذا الزحام خطر عليها، وأضافت في تهتك أنها لن تحتمل لمسة من أحد، لأنها ترى رجالاً أشداء ممتلئين بالفحولة، نهرها شيخ عجوز، وسألها الكمساري في رقاعة عن بلدها، وقام شاب جامعي وأجلسها مكانه بجوار زميله، ورأيتني مثاراً بشدة خلف امرأة، ولا أحد يلاحظ أحداً، فالكل مشدود ومنتبه للفتاة التي تلقى نظرة دلال لكل ناظر، وأوشكت أن أفرغ طاقتي وأقضي حاجتي، ثوانٍ بقيت، وفجأة نهضت من مكانها تردد نفس عباراتها وهي تندس وسط الرجال المتزاحمين الذين كادوا يعتصرونها، ومررت جسدها المشقوق حتى وصلت إلى الباب الخلفي المفتوح دائماً ونزلت فنزل وراءها خلق كثير، يتقدمهم الشاب، ووجدتني أهتز مرتعشاً ثم أحس بلزوجة دافئة تنسال بين قدمي، وأفقت من فتنة الفتاة على امرأة في السبعين من عمرها كانت تقف أمامي تماماً، وقالت لي بعد أن هدأت:

٢ - حاجة لله يا بنى قبل ما تنزل.

فدسست في يدها بهريزة، ثم بدأت أشق الزحام ناحية الباب الأمامي، وقد أدركت أن محطة بين السرايات قد تجاوزها الأتوبيس، تذكرت وأنا أنزل من الأتوبيس على بعد كيلومترين من شقة "أبو أئانة" أنني لم أصل المغرب بعد، وأنني لا بد من أن أسرع الخطو لأغتسل في حمام الشقة قبل آذان المغرب، ودخلت مسرعاً وخلعت

ملابسى وألقيتها على السرير فسقطت على وجه "منيب" النائم، فلم يشعر، وهرعت بملابسى الداخلية ناحية الحمام لتصدمنى أصوات تغوط "عثمان" السابقة الذكر ورائحته النفاذة.

- يا أخ عثمان .. قرّيت ؟

- يا عم قلت لك إن الله مع الصابرين .

هب من سريرى المهندس "عثمان" رفيق الدكتور "عثمان" فى الغرفة الأخرى المجاورة لغرفتنا بالشقة، وصرخ بصوت عظيم ارتجت له أركان البيت القديم :

- يا أخ "عثمان" .. ميت مرة أقول لك بلاش تذكر اسم الله وانت فى الحمام .

رد عثمان بصوت متحشرج :

- حاضر .. حاضر ، هانت هاللى انت .

أخذت أذرع الصالة التى يطل عليها الحمام والغرفتان، وخطر لى خاطر طريف بأن هذه الشقة تختصر "مصر" : يملكها رجل الحزب الوطنى، وقيم بها عضو من الإخوان هو المهندس "عثمان"، وعضو من الجماعة الإسلامية هو "منعم"، وأقلية مثقفة ذات ميول يسارية هو أنا، واثنان يمثلان الأغلبية الصامتة، هما الدكتور "عثمان" و"منيب"، وقطع خواطرى صوت صادر من موقد الغاز الصغير الذى نظهى عليه الطعام ونغلى عليه الشاى واليانسون، صوت كالضحك خافت لا يكاد يُسمع، اقتربت بأذنى منه، وسمعتهُ يُنفّس، وصرخت مستغيثاً بـ "منعم" والجميع، منبهاً إياهم للكارثة، فجاءنى صوت "منعم" هادئاً :

- يا جدد ما تقلقش، ده أنا سايبه يطلع الهوا اللى فيه .
وابتسمت ساخراً وقلت لنفسى إنها هي مصر فعلاً، تلخصها
حكاية التنفيس، خرج الدكتور "عثمان" من الحمام، فأسرعت
للداخل واغتسلت بماء بارد وخرجت مسرعاً متوقفاً آذان العشاء في
أية ثانية، والتقطت بنطلونى المعلق فى المسمار المثبت بالحائط
كمشجب، واكتشفت به آثار بقعة جافة خشنة فوق قماش الجيب
العلوى الأيسر، وخشيت أن يكون ذلك السائل المنوى الذى يتدفق
منى فى الأتوبيس يومياً قد تسرب للبنطلون، واستبعدت هذا
الاحتمال لأنى أتخذ عادة احتياطات متعددة، منها لبس لباس
بلدى، سميك القماش .

شممت مكان البقعة فى البنطلون قبل أن أرتديه حتى لا يفسد
صلاتى لو ارتديته، فاكتشفت رائحة ليمون، مددت يدي للجيب
واستخرجت منه ليمونة ذابلة ومثقوبة، وخمنت أنها ربما تكون قد
علقت بسن مسمار فى باب الأتوبيس، فثقبها، وانسال السائل على
البنطلون، وربما يكون شئ آخر نسيته فى البنطلون، ولا بد من أن
الجميع قد لاحظوا البقعة : الكمسارى والركاب والسيدة التى كانت
تقف أمامى ساعتها وسكان الشارع ورفاق السكن .
أفقت على صوت آذان العشاء، وحزنت جداً لفوات صلاة
المغرب، فالمغرب غريب كما كانت تقول لى أمى .

(٤)

أنظر يمينا في الميدان ، حيث ينام بين جنزير دبابة الجيش ، شاب
ملتج ، لو تحركت سنتيمتراً لفرمته داخلها ، اندهشت من شجاعته ،
وتذكرتني عندما كنت قبل ثلاثين عاماً عائداً إلى أسيوط ، في قطار
الدرجة الثالثة قبل عيد الأضحى بساعات ، ولم أجد مكاناً في القطار
سوى فوق الرف ، بين مقطف وحقيبة سفر ، وبقفزة واحدة كنت
بينهما ، ثم أزعجهما قليلاً وتمددت وقلت لنفسى إننى لن أغفو ،
ولو حدث وغفوت فإن أية فرملة فجائية للقطار ، سوف تلقى بى
فوراً من باب القطار المفتوح ، لذلك فالرعب سيمنعنى من أن أغفو ،
ورغمًا عنى ، غفوت .

لا يفارقنى هذا المشهد ، كلما ركبت سيارتى التى أكرمنى ربنا بها ،
وصرت وأنا داخل السيارة التويوتا المكيفة بالهواء الساخن أو البارد ،

أنظر من موقعي بأسفل لأعلى ناحية الركاب المكდسين فى الأتوبيس ،
ومن نظرات أعينهم التى تسترق النظر للسيدات ، أدرك ما ينوون فعله ،
ومن ارتعاشات أجساد بعضهم ، أعلم ما يفعلونه فعلاً .

لكننى رغم راحة السيارة المكيفة والمكتب المكيف ، تنتابنى
نوبات إرهاق عام شديدة ، لم أكن أحس بها يوم كنت أعانى المرمطة
فى الأتوبيس والعمل ، وهى نوبات لا يحس بها ساعى مكتبى الذى
يكبرنى بسنوات ، ويعيش الآن فى ظروف شبيهة بتلك التى كنت
أعيشها منذ بضع وعشرين عاماً .

كنت أنظر للأتوبيس وللشوارع وأرددها : صدق "منعم" ؛ لا شيء
يتغير .

وبين الحين والآخر ، أرددها لنفسى مراراً ، لم يتغير شيء ، ولن
يتغير شيء فى هذا البلد ، ولولا أن زوجتى أحببته ، ما تغير حالى أنا
شخصياً ، بعدما قبل بى أبوها زوجاً لها نزولاً على رغبة وإصرار
ابنته ، وأنا المعدم الذى لا أملك إلا أفكاراً خرقاء وثقافة حمقاء ،
واضطر أبوها لانتشالى من الفقر وتشغلى بشركته التجارية مشرفاً
إدارياً ثم مديراً ، لولا ذلك لما تمكنت من أوفر لها مستوى معيشياً
لائقاً .

لقد كنت كتلة بشرية زائدة دائماً ، تقتات على فئات الآخرين
وما يتبقى منهم : زاداً فى موائد الرحمن ؛ وسريراً فى شقة "أبو
أتانة" ، وموضع قدم فى الأتوبيس ، ومربع خشب مكتبى فى عملى
القديم كمترجم .

لم أكن أدرك مطلقاً سر حالة الإرهاق التى تنتابنى بين الحين والآخر، ولم أعرض نفسى يوماً على طبيب ليشرحها، وهى نفس الحالة التى داهمتنى صبيحة الخامس والعشرين من يناير، والتى جعلتنى، وأنا أقود سيارتى، راغباً فى النوم بشدة غير قادر على فعل شىء، وكانت "فاتن" معى صبيحة ذلك اليوم المشهود.

- لسه كتير ع الشقة؟

- عشر دقائق يا قطة.

فأخذت تعبت بشعرى الخفيف وأنا أقود السيارة، واتصل بى على المحمول "منيب":

- محتاجك تقول لى تصريح على لسانك من مواطن رافض للخروج على الشرعية، هنذيعه فى القناة الأولى باعتبارك مواطن يدين دعوات الإثارة، وأن دعوة النهارده للتظاهر فشلت، بدليل تجمع بضع عشرات عند نقابة الصحفيين و... قاطعته:

- "منيب" .. الساعة لسه ١٢، والدعوة ع الفيس بوك كانت بتقول إن التجمع للتظاهر هيبقى فى نقاط مختلفة من الساعة اتنين. - ولو .. احنا عايزين نوصل رسالة للناس اللى لسه ما نزلتش. انفجرت ضاحكاً وقلت بسخرية:

- لو عايز الناس تصدقكم، قول عكس اللى انتوا عايزين تقولوه.

- طب انت توقعاتك إيه؟

قلت وأنا أنظر ناحية الأتوبيس المكتظ الذى لا يزال يسير
بجانبي :

- يا عم، سيبك انت، مش حيحصل حاجة، ده شعب لا
مؤاخدة.

فهقه "منيب" ثم أغلق الخط، فقلت لـ"فاتن":
- ده "منيب" صاحبي، معد فى التليفزيون، وكان عايز ياخذ
رأىي، وزى ما سمعتى كده، ولا إنتى إيه رأيك؟
- أنا ماليش ف السياسة.

- يا ريت تكون السياسة بس اللى انتى ما بتفهميش فيها.
ضحكت "فاتن" برقاعة استشارتنى فضغطت على البنزين أستحث
الطريق، ولاح التجمع السكنى الذى تقع به شقتى من بعيد.
شعرت بدبيب قلق الباردة يسرى فى بدننى مجدداً، وقلت إنها
-زوجتى- لن تعرف مطلقاً، ولو عرفت هى فالكرة فى ملعبها، ولو
أرادت الطلاق فسأمنحه لها راضياً مرضياً، فالأولاد كبروا ولا
يحتاجوننى كما كانوا صغاراً، وهى لا تحتاجنى إلا استكمالاً لديكور
الأسرة أمام المجتمع، وأنا على شفا الوقوع فى خطيئة عظيمة لم أقع
بها عندما كنت شاباً أعزب، أى نعم قد أشبعت رغبتى من النساء
من قبل بطرق أخرى، لكنها لم تصل إلى حد الخطيئة التى أوشك
على الوقوع بها هذه الأيام، لم يعد الجنس السطحي يشبعنى بعد أن
ولجت أعماقه، وقلت لنفسى إننى سأتماسك، ولن أرتكب شيئاً مع
"فاتن"، ونحن داخل الشقة.

ماذا لدى زوجتي لكي أحججه؟ امرأة؟ ذهبت، سكن؟ لدى مثله، شركة أبيها؟ تركتها وانتقلت أنا للعمل مديراً في مكتب وزير الاتصالات.

ثم أقلق؟ كلام الناس؟ وهل سيصفقون لي عندما يرون صوري في الصحف ملفوفاً في ملاءة بيضاء ومجروراً بيد شرطة الآداب؟ أعرف ماذا يقولون في الحالات:

- الشايب العايب المثقف المحترم، متصابى.

لقد أهلكت أطناناً من الكتب لم تزدني إلا فقراً من المال ووعياً بقسوة الحال وانعزالاً عن القوم، تشككت لدى رؤى بأن النساء يتساوين، نعم يتساوين إذا وعيت جوهرهن بعقلك فقط، ولكنهن مختلفات عندما تنظر لهن بعين الغريزة، لتجد ميولك تجرّك نحوهن مجرد كونهن كياناً يشبع رغبة الجسد للارتواء والقلب للحب، لا تكفيك حينها عشر نساء، لا سيما والعمر ينسحب بشهواته ونزواته.

أغمض عقلك، وألق بجسدك وسط أجسادهن بلا تفكير في طبائعهن.

وكنا قد وصلنا مبتغانا، شقتي العزيزة، حلم عمرى الذى لم أنله إلا متأخراً وقد حلمت به منذ تخرجت في كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية، هو المكان الذى لن يطردني منه رئيس الجامعة لأننى تجرأت واعترضت طريق ضابط أمن الدولة عندما دخل المدرج دون استئذان أثناء محاضرتي للطلاب، طردت الضابط منه مدافعاً عن

الطالب رئيس رابطة الطلاب الاشتراكيين، هو المكان الذى لن يطردنى منه "منعم" لأننى لا أقوم بخدمته كزوجة، هو المكان الذى لن تطردنى منه زوجتى عندما تغضب علىّ، هى شقتى، هى مملكتى، هى ادخار العمر من حر مالى، هى ثمرة معلومة قدمتها لصاحب شركة تطوير عقارى، مجرد معلومة بسيطة تجعله يعمل ويكسب، وكانت هذه الشقة فى تجمعه السكنى، هدية بسيطة منه لى مقابل هذه المعلومة.. من تضرر؟ لا ضرر ولا ضرار، تلك هى القاعدة الشرعية الفاصلة بين الحلال والحرام، وأنا لم ألحق ضرراً بأحد.

لم أر شرطياً طوال الطريق إلى الشقة، كالمعتاد، فى هذه المناطق قليلة السكان، ولم يكن يلفت انتباهى ندرة رجال الشرطة، لكننى التفت لتلك الملاحظة اليوم ربما لأنه عيدهم الذى سرت فيه الدعوة لثورة، وكانوا محتشدين فى الميادين والشوارع، يتأهبون للمقمع.

خطوت ناحية الشقة تتبعنى "فاتن"، لم تكن تنتابنى ساعتها رعشة المذنب كعادتى عندما أقدم على فعل أعتقد بحرمته، وهى الرعشة التى انتابتنى لأول مرة، عندما اصطحبت فتاة من سنى وكنت فى الثانوية العامة، ومشيت بها فى كل مكان يعرفنى فيه أهل المنطقة لكى أثبت للجميع أنى منحرف منفلت لا علاقة لى بالإخوان المسلمين، ولست عضواً بالجماعة الإسلامية، الذين بدأت تلوح بواكير الصدام بينهم وبين الدولة نهاية السبعينيات، ظللت أتسكع بالفتاة الشهيرة بسمعتها السيئة فى شوارع مدينة "أسبوط" راجياً أن يضربنى أمير من أمراء الجماعة فيتأكد لأمن الدولة ما أريد

أن أوصله لهم، لأزيل من ملفي ما أوصله لهم مخبر مغرض من قبل، وبناء على تقريره، بدأوا في تقصى أحوالي بين معارفي وأصدقائي .
حادثة موعلة في تاريخي، مضيت يومها بالفتاة لكن أحدا لم يكتثر لنا، باستثناء رجل تبعنا حتى وصلنا إلى منطقة مظلمة، وتمنيت أن يكون مخبراً فوضعت ذراعي على كتف الفتاة لأثبت لها ولهم أنني عند حسن ظنونهم، ولاحظت هي ارتعاشتي المؤمنة، فضحكت ساخرة ثم برز لنا من الظلام الرجل الذي تبعنا وأنتظره، فقلت له إنني من عائلة فلان فتركنا معتذراً، وأسفت أنا لأنه لم يكن -كما ظننته- مخبراً، وظننت أنهم اختفوا يومها فجأة من البلدة، كما حدث يوم ٢٥ يناير ولا شرطة تبدو في أي مكان .

عندما ولجت الشقة، دخلتها "فاتن" خلفي وأغلقت الباب وراءها ببساطة من يدخل مكاناً يعرفه، كان المكان مترباً فشرعت هي في نفخ التراب عن مكان جلوسها، ولم يكن بالثلاجة سوى ماء فاتر حيث الكهرباء مقطوعة، فخرجت بحثاً عن مطعم أو سوپر ماركت، وعرجت في الطريق على صيدلية وقمت بقياس الضغط، متوقفاً أن يكون ما بي من إحساس بالإرهاق نتاج انخفاض ضغطي، وكانت الصيدلية بجوار مسجد، فقلت إنها رسالة من الله لكي لا أقع في الفاحشة، ها هو يساعدنني لأمتنع عن الوقوع فيها بأن يجعل الضغط ينخفض، ثم أقيسه في صيدلية بجوار مسجد، فلأصبرن بضع ساعات ريثما أقوم بكتابة عقد الزواج العرفي على "فاتن"، صبرت طويلاً دون تمرد على واقعي، ولا بأس من عدة ساعات أخرى من الصبر .

قال الصيدلى إن ما أحس به هو مجرد إرهاق نتاج قلق أو توتر
ولا علاقة له بمرض، فقلت له :

-- عندك "مقوى" عام لا يؤثر بالسلب على مريض الضغط ؟

مد يده وتناول علبة أقراص، تناولتها من يده وقرأت نشرتها
سريعاً ثم دفعت ثمنها وتناولت قرصاً بشكل لا إرادى ثم خرجت
من عنده متسائلاً ما الذى دفعنى لمقاومة الإرهاق الآن بهذه العجلة،
هل ضغط عقلى الباطن على خشية أن تطلبنى "فاتن" فأخذلها
وأغضبها؟ أترانى أغضبت الله بما فعلته من استعدادات طبية؟

وضعت هى الطعام على المائدة وكأنها ربة منزل فى بيتها، لكنها
كانت بملابسها الكاملة، وحجابها فوق رأسها لم ينحسر إلا عن
خصلتين زادت وجهها بهاءً، فتأملتها ملياً وتذكرت زوجتى التى
فقدت كثيراً من حيويتها حتى فى الأعمال المنزلية الاعتيادية،
معتمدة على ابنتنا الكبرى التى توزع وقتها ما بين المذاكرة فى كلية
الطب والأعمال المنزلية، تماماً كما اعتمدت أنا على ابنى ليحل
محلّى فى جلب ما يحتاجونه هم من خارج المنزل .

سرى النشاط والحيوية فى بدنى، بعدما امتلأت معدتى بالطعام،
أكلت بشهية مفتوحة وغريبة، ثم ابتلعت قرصاً آخر مقوياً وبدأت
أقاوم تحريض الشيطان لى على "فاتن"، بالتقليب فى جهاز المحمول،
مدفوعاً ببعض الفضول لمعرفة ما جرى فى البلاد من تظاهرات،
فالساعة بلغت الثالثة عصراً، وذهلت عندما قرأت فى خدمة الأخبار
العاجلة أن عشرات الآلاف يتظاهرون الآن فى مناطق مختلفة

بالقاهرة، فسارعت بفتح موقع "تويتر" وعرفت أن مفتاح البحث عن أحداث التظاهر هو (25 Jan) فكتبته في خانة البحث لأتابع مستجدات التظاهرات أولاً بأول، ووجدت سيلاً متدفقاً من الأخبار والتوصيات، بعضها يخبر بوجود صدامات بين الشرطة والمتظاهرين أمام دار القضاء العالى وأخرى أمام نقابة الصحفيين، وثالثة تدعو إلى تغيير مسار المسيرة القادمة من بولاق الدكرور والسائرة في جامعة الدول العربية، والدخول شارع البطل أحمد عبد العزيز بدلاً من الاتجاه إلى ميدان سفنكس، وأن الهدف للجميع هو ميدان التحرير، وقالت "فاتن" إنها رأت ملاءة السرير وأغطية الوسائد في أكياسها، وقلت لها إنها تنتظر يد العروس لتخرجها وتضعها حيث تكون، وكنت أريد أن يغمرنى شعور عريس في ليلة دخلته، ونجح بعض الشباب في اختراق حواجز الأمن المركزى ووصلوا ميدان التحرير من ناحية "عبد المنعم رياض" وقصر العيني، ونهضت "فاتن" متجهة ناحية غرفة النوم، وأخذت تخرج الملاءات والأغطية من أكياسها، وأنا بين مشاعر متضاربة قلقاً مما هو قادم، وخوفاً من الوقوع معها فيما لا أحب وقوعه الآن، وحفيف ندم خفيف يسرى في نفسى على فوات المشاركة في التظاهرات، ونادتنى:

- تعالى ساعدنى نكبس الخدة في الغطا.

نهضت وأمسكت هى بالغطاء وبدأت أنا فى إيلاج الوسادة داخل الغطاء، فقالت بميوعة استشارتنى:

- دخل جامد.

حاولت أن أتماسك ولم أعلق، وتخيلت شكل ميدان التحرير وعشرات الآلاف يتدفقون عليه، وصدى هتافات يرن في وجداني صاعدة إلى من "تويتر":

- عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية.

وعندما وصلت الوسادة إلى منتصف الغطاء، مدت هي يدها داخل الغطاء وقالت:

- دلوقتي بقي، شد جامد.

أمسكت أنا بأطراف الغطاء، ثم سحبته بقوة انتزعت "فاتن" من مكانها وألقت بها أمامي مباشرة وهي تشهق، وكان المشهد جليلاً في مخيلتي، أشواق عشرات السنين من عمري، عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية، وكنت أود لو أنني استطعت التجاوب مع لحظة تمرد انتظرتها طويلاً.

فضربتني على كتفي بدلال وهي تبتسم، ولم يكن بيننا سوى بضع سنتيمترات هي حجم الوسادة التي تفصل جسدنا:

- ده انت طويل قوى، بان الفرق بيننا لما قربنا من بعضنا.

ابتسمت فخوراً ثم أسقطنا الوسادة، واستدعى مشهد سقوطها أمنيات قديمة بانهار النظام الحاكم، لم تعد أمنيات الآن، وجذبت "فاتن" نحوي فصارت بين ذراعي تماماً، وقلت إنه لن يضير بضع قبلات وأحضان مع فتاة ستصير عما قريب امرأتى، ولن يضير اليوم بضع شهداء يسقطون فتنهض ثورة حقيقية وليس تظاهرات تنتهى بانتهاء اليوم، فاقتربنا واختلطت أنفاسنا، فضممتها إليّ وقبلتها

ففوجئت بها تلتهم شفتي وهي تتعلق برقبتي وتتلوى بين ذراعي
كعجينة طرية شهية، وتذكرت زوجتي الباردة التي تخنق من طول
القبلة، ولا يثيرها إلا مجهود خارق مني، أترى "فاتن" غير مختننة
لذلك فهي سهلة الإثارة؟ أترى الناس كلها تستجيب اليوم؟

ونحن عاريان تماماً على السرير، كان جسداً يلتصقان من أثر
بعض العرق، وشدة الاحتضان والتمرغ لم تحدث اتصالاً كاملاً،
بعض الجنس السطحي فقط، وفكرت أن أتصل باخامي والشاهدين
لأبلغهما بأنني تزوجتهما، وليشهدا الزواج الآن وهم معي على الخط،
ولم يرد على اتصالي أحد، كنت لا أزال أريدها عملية جنسية
كاملة، وقلت إن ربنا غفور رحيم، فقاومتني بقوة أدهشتني، وقالت
لي إنه حرام، وإن عندها طريقة أخرى ستجعلنا نستمتع كما لو كنا
في عملية كاملة.

واعتليتها واعتلتني، وأنا أستدعي خبراتي العتيدة العتيقة في
الجنس السطحي، وبدت الفتاة خبيرة به، وعقلي يطن كالمحموم
بكلمة واحدة:

- تحرّر تحرّر.

دقائق مرت وكنت قد ارتويت وهدأت وتحررت، وتمددت عارياً
في استرخاء، وبكسل بالغ مددت يدي لألتقط جهازاً
وبدأت في تقليب الأخبار والتغريدات التي تترى على تويتر،
متسائلاً: هل أتيت بكبيرة؟ وكانت الجموع قد التأمّت في ميدان
"التحرير" وقررت الاعتصام حتى تتحقق مطالب الإصلاح،

والكهرباء المقطوعة تمنعنى من الاغتسال بماء السخان الدافئ،
فقررت الانتظار قليلا ريثما تعود الكهرباء، وقالت "فاتن" وهى
تعبث بشعر صدرى العارى: ماتيجى نبات النهارده هنا؟

هذه اليتيمة لا أهل لها يسألون عنها، لكن زوجتى التى أفقدتنى
مذاق الأشياء ودفعتنى للثورة عليها باقتناء "فاتن"، ستشك ألف مرة
لو نمت خارج مسكنها ليلة بدون سبب مقنع وبلا مقدمات، وخطر
لى أن أقول لزوجتى إننى معتصم فى التحرير، لا سيما وأننى لن
أستطيع الذهاب إليها برائحة عرق "فاتن"، ستشمها بالتأكيد هذه
المرأة التى تمتلك ألف أنف كلب بوليسى.

آه لو حدث قبل خمسة أعوام كل هذا الانفلات خارج الصندوق،
كل هذا التمرد على الاحتكار، كل هذا الوعى الجمعى، لانتعشت
روحى بالتفاؤل وفار عقلى بالأفكار، وانخرطت فيما يروى ظمأ
نفسى، ويشغل فكرى، ولقدمت لى ولبلادى ما يناسب طاقاتى
وقدرى، كل ما عندى كنت أود تقديمه، ولكن نفسى كانت
مسدودة، ولا شيء جاد يصلح، ولا أحد يستاهل، لو حدث قبل
خمس أعوام خروجكم -يا قوم- عندما كنت أصبح فيكم طالبا
يقظتكم ومناديا ضمائرکم، لما احتجت إلى "فاتن"، لما تجمعت كل
رغباتى وطاقاتى الفكرية والثقافية، وحفرت لنفسها مخرجاً جنسياً
لها، إننى لم أتحقق كما أريد، لم أتححر كما أحب، فحاولت أن أتحقق
وأتححر على جسد امرأة، تثبت لى أننى حى، لقد تأخرت يا قوم، حتى
سقطت فيما لم أكن أحب لنفسى ولا تحبون لى، سقطت فى شقتى

التي كنت أريدها طاهرة، ولكن هل هي نفسها خلال خالص؟ أم أنها رشوة أخفى تفاصيلها عن كل الناس، ولي عند بلادى وأهلها شقة وسيارة ومدفن، لم أتمكن من ادخار أثمانهم طوال مدة عملي في دار النشر ولا حتى عند والد زوجتي، زوجتي التي لم تكن لترضى بأقل من مستوى معيشتها السابق، وكان دخلي الكبير من عملي عند والدها، لها كله ولأولادها، كنت كمن يعمل عندها وعند أبيها في نفس الوقت: أعمل عند أبيها لأتلقى راتبى الذى أنفقه على ابنته وأولادها.

كنت لا أزال أقلب في تغريدات "تويتر" التي تنبئ عن إصابات وإغماءات تعرض لها المتظاهرون الرابضون في التحرير، عندما قفز في شاشة المحمول قاطعاً سيل الأخبار رقم زوجتي، وجاءني صوتها: - ابنك بعث لى رسالة على المحمول أنه فى مظاهرات التحرير، ومش عايز يرد على تليفوناتي من الصبح.

ابننا الذى سيكمل العشرين من عمره بعد يومين، أرسل لها رسالته تلك طالباً دعاءها ومستسمحاً إياها على خروجه بغير إذن، لماذا لم يرسل لى؟

فى ثانيتين كنت قد ارتديت ملابسى تاركاً "فاتن" ممددة تغط فى نوم عميق ووجهها مثل ملاك فارّ من طهر السماء، وقبل أن تمر دقيقة كنت أنطلق بسيارتى مسرعاً ناحية التحرير، ابنى الوحيد كان معرضاً للمضياع منى ساعتها، لماذا لم أحسبه ضمن مكاسب الدنيا التي خرجت بها من زوجتي إلى جانب القيلا والوظيفة؟ ربما

هو المكسب الوحيد، وهل سأظل في خاطره بعد مماتي وأبى لم يمكث في خاطري بعد وفاته سوى يومين؟ كل ما أدخره سيكون له، السيارة والشقة والمدفن الذى تسلمته وشاليه الساحل الشمالى الذى لم أستلمه بعد، كلها ستؤول له ولأختيه، وها أنا أحاول اللحاق برمق اللذة الأخير لأعوض حرماناً كانوا هم وأمهم سبباً فيه، كم كنت أود أن أظل كاتباً يسارياً بوهيمياً متشرداً أتسكع فى الحانات والمقاهى بلا التزامات أسرية أو وظيفية.

طوال الطريق إلى التحرير، لم أكف عن الاتصال بابنى، ابنى الوحيد لا يرد، وخواطرتنى تجتاحنى، وكنت أردد مبتهلاً:

- يا ابنى رد، يا مكسبى الوحيد.. رد، يا من أفديه بكل لذة فائقة وآتية.. رد.

ونظرت للسماء وقلت مخاطباً إياها:

- أتراها لعنتك لى بسبب نجاستى الحاضرة؟ يا رب لا تجعل انتقامك منى فى ابنى، لا تجعل غضبتك على ذريتى، أنت عادل يا رب، لا تزر وازرة وزر أخرى، ما ذنبه؟

بحثت فى تغريدات تويتر، مصابين كثر لكن لا شهداء، الحمد لله، شكراً يا رب، احفظهم جميعاً يا رب، لكن الشهداء هم رافعة الثورة، هم أعمدة تشبعتها، ووقودها لكى تستمر حتى تحقيق مطالبها، هم الذين يجعلوننا نقول عندما يهتز اليقين وتخفت الهمم: ودم الشهداء؟ فنستمر. مفهى على جانب الطريق يكتظ بالناس المتحلقين حول تليفزيون فيما يبدو، لو كانوا يتفرجون على مباراة كرة قدم فسأتوقف وأصرخ فيهم:

- شوفوا ابني وولادكم، ثم أحول القناة لمشاهدة فنانتي "الجزيرة" أو "العربية"، وأتركهم.

أبسطأت سيارتي ونظرت، كانت "الجزيرة" تبث مشاهد حية للتظاهرات، وابني لم يرد على الاتصال العشرين بعد المائة، وأمه لا تكف عن الاتصال في هلع فلا أملك لها جواباً سوى طمأننتها بأني سأصل إليه حالاً.

اتصلت بـ"منيب" الذي لم يرد هو الآخر، بالتأكيد "منيب" مشغول في استطلاع رأى الكارهين للتظاهرات، لا موقف له ضد أحد أو مع أحد منذ عرفته، هو قطار يسير على قضبان لا يحدد عن هدفه المتجه إليه بلا إرادة منه ولا رغبة، ككل ضباط الأمن المركزي، لم تختلف طبيعته عما كان عليه منذ أول جوال قلقاس باعه في سوق الخضار من ربع قرن أو يزيد، عندما رأى أبوه أن الأسعار غير مناسبة في البلدة، فأرسل الأب "منيباً" -الجالس بلا عمل- مع سيارة نقل محملة بالمحصول الجيد إلى سوق الخضار، وقبل أن يعود "منيب" لبلدته بيوم اتصلت به لأخبره عن فرصة عمل كمحرر في دار النشر التي أعمل بها، فمكث بها وقام بجمع وتحرير مادة كتاب أحد كبار الكتاب المعروفين، ثم ذهب إليه بالنسخة الكاملة، وطلب منه أن يعمل بـ"الكالوريوس الإعلام" في أى قناة تلفزيونية، وكان الرجل شهماً.

كان والد "منيب" راضياً عنه فيما يبدو بعد أن عاد له يوم القلقاس بمبلغ محترم، أما أنا، أنا الذي كنت سبباً غير مباشر فيما

هو فيه ، فقد ظلمت أتخطت تتجاذبنى يد الحياة القاسية ، بعدما أنبى
أب قاس على تركي إياه وحيداً يزرع أرضه في البلد ، رافعاً يده إلى
السما كل حين بالدعاء على ألا يتحقق لي أمل ، يدعو على ليضغط
على حتى أعود إليه صاغراً معتذراً معاوناً له في الأرض بعد فترة
عملي الصباحية في مدرسة القرية مدرساً للغة الإنجليزية كما كان
يرجو ويخطط ، لكنه خفض يديه من السماء يوماً فجأة في أرضه
ممسكاً بقلبه الذي ظل يدق لسبعين عاماً ثقيلة ، وكانت تلك آخر
آلامه .

ومكثت أردد :

- يا رب أنا راض عن ابني ، لن أفعل فيه ما فعل أبى في بدعوته
المستجابة ، رغم أنه لم يستأذني في النزول ، ولم يرسل لي مثلما
أرسل لأمه رسالة اعتذار وطمأنة .
وظلمت أكررها مهموماً :

- يا ابني .. رد ، كم أننى حزين بسببك وقلق عليك ، لقد حلمت
بهذه اللحظة ، لأكون أنا لا أنت فيها ، أكون أنا فيها من أجلك أنت ،
ورأيت من بعيد لوحة بعرض الكوبرى العلوى (من أجلك أنت)
وسنبلة خضراء تشق لوحة تحتها عبارة الحزب الوطنى الديمقراطى ،
لقد استسلمت لليأس بعدما نجح الرئيس فى انتخابات ٢٠٠٥
وقررت أنه بالفعل كفاية ، يكفى هؤلاء القوم -قومى- ما قدمته لهم
من أعصابى وأحبال صوتى وضغط دمى الذى ارتفع بسبب انخفاض
حميتهم ، قومنا خذلونى وأتعبوك فيما هو آت من مستقبلك ، كم

هى قاسية أيامك المقبلة، كم هو ثقيل ومدين ميراثك منا، رغم الشقة والسيارة والشاليه والمدفن .

كنت وما زلت أخشى عليك أن تموت يا ابني برصاص رجال ابن الرئيس ؟ أيدرى هذا اللص ما يمكننى أن أفعله به يومها ؟
لقد جعل الرئيس البلاد كلها من أجل ابنه ، وأنا نذرت ما مضى من عمرى من أجلك أنت أيضاً ، وابنه ليس أهم منك ، ابنه يكرس عمره للخراب ومن أجل هيمنته وأنت تعرض عمرك للخطر من أجل بلادك .

الطريق كان شبه مشلول أعلى كوبرى "أكتوبر" ، واللعنات تنهال من أفواه سائقى السيارات المعطرين ، على أولئك المعتوهين الذين احتلوا ميدان التحرير ، وترجل كثير منهم مستنداً إلى سيارته ليقوم باتصالات بدويه ، وتمنيت لو كنت أستطيع ترك السيارة أعلى الكوبرى والقفز من فوقه للشارع لأجرى ناحية الميدان الذى لا يبعد سوى كيلومترين ، فقط ، لكن الشلل الذى أصاب البلاد فى هذا اليوم ، لم يكن يمكن أن يتجاوزه سوى تحرك بلا عقل .

(٥)

يزغرد قلبى وأنا أرى الآلاف لا يزالون يتدفقون للميدان من
ناحية كوبرى قصر النيل، بعد تفتيشهم من قبل ضباط القوات
المسلحة المرابضين عند مدخل الميدان مواجهين لأسدى قصر النيل،
وشباب ليسوا مثلنا ونحن شباب، يستقبلون القادمين مرحبين
ضاربين الدفوف والطبول :

- مرحب مرحب بالأبطال .. مرحب مرحب بالثوار .

مشهد لم أكن أتخيله فى أحلى أحلامى ، القوم يزيد إصرارهم
يوماً عن يوم ، حتى بعد مضى ١٨ يوماً على اندلاع المظاهرات ، ولو
تخيلته ما تخليت عن عزيمتى القديمة ، وما كنت سأقوم - مساء ٢٥
يناير - بإرسال رسالة لابنى أطلب منه فيها الحىء إلى حيث مقهى
"التكعبة" الواقعة فى شارع "شمبليون" المفضى إلى الميدان، حينما

أرسل لى رسالة يعتذر لى فيها بحجة أنه يعتنى بزميل له مصاب بهراوة فى رأسه .

يومها أرسلت له رسالة أخرى محملة بإلحاح ووعده منى بعدم إجباره على شىء ، وأننى سأظل أنتظره فى مقهى التعكيبه ، ولن أغادر حتى يأتى ، كنت أوقن أنه سيأتى ، ثم عاودت الاتصال بـ "منيب" لترك كل ما فى يده والجيء لإنقاذ ابنى معى ، عندما لم يرد هو الآخر أرسلت له رسالة بضرورة الجيئ ، هو الوحيد الأقدر على تشبيط الهمم وإخماد الثورات فى النفوس الفوارة ، آمنت بذلك عندما أقنعنى قديماً بعدم إظهار الغضب تجاه "منعم" لكى نكسبه ، ليوافق "منعم" على انتقالنا معه من شقة "أبو أتاتة" إلى شقة خالية عثر عليها بعد بحث طويل فى العمرانية ، منطقة أرقى وشقة أوسع ، ولولا قدرات "منيب" على الإقناع لكنت قد قررت أن أثور على كل قيود "منعم" وأوامره ، والتي تبدأ مع بداية اليوم : نستيقظ معه إذا استيقظ بسبب عنفوان صخبه الصباحى ، لكننا يجب أن نمشى على أطراف أصابعنا إذا استيقظنا قبله حتى لا نزعج جنابه ، نطهى الطعام قبل أن يأتى بنصف ساعة لا تزيد ولا تنقص ، حتى يكون ساخناً بما يكفى لمتعة الأكل ، ثم ممنوع منعاً باتاً وضع أى ملح فى الطعام لأنه خطر على مرضى الكبد ، حيث يظن "منعم" نفسه أحدهم ، أما قائمة الممنوعات المسموعة فى راديو الغرفة ، فهى تشمل كل شىء ما عدا كلام الله منطلقاً من إذاعة القرآن الكريم ، حرام كما كان يرى "منعم" ، أو بالأحرى كما يرى الأمير المباشر له فى الجماعة الإسلامية .

- "ناقص يمارس معنا الجنس ، ماهو متجاوزنا" .

قلت لها وقتها لـ"منيب" بعد أن تلبسنى و"منيب" فعلا شعور بأننا زوجتا الأخ "منعم" ، وقلت ساخرأ إننى سأخبره برغبتنا المشتركة فى الانفصال ، أقصد أن يتحمل كل منا نفسه فيطهو لنفسه طعامه ، ويكف عن التدخل فى حريتنا الشخصية .

- بس ده صعب يا عم .

قالها لى "منيب" مستكينا ثم أردف :

- بص ، إحنا بنين له زعلنا بس ، ده مهما كان أكبرنا سنأ ومقاما .
ثم ظل يحاول أن يقنعنى بكلام كثير لم يدخل فى روعى منه سوى موضوع شقة العمرانية المرتقبة ، وطرحت يومها منطقاً بدا لى أنه لم يفهمه أو أنه فهمه ، ولكنه استنكره ، فيما كانت نظرتى حاملة وكأنا أذيع اكتشافاً :

- عارف يا "منيب" إن الشقة دى هى تلخيص لمصر ، أخذها الأول العثمانيين ، الدكتور "عثمان" والمهندس "عثمان" ، وبعدين جه عليهم بتوع الحركات الإسلامية بفرضوا عليها سيطرهم ، زى ما بيعمل "منعم" كده ، وهى دلوقتى مملوكة لـ"على" عضو الحزب الوطنى ، وانا وانت المواطنين ، واحد يسارى معارض اللى هو أنا ، وواحد مالوش ف حاجة اللى هو انت .. وفى النهاية محصلين بعض ، لا حول لنا ولا قوة .

لم يكثرث يومها "منيب" لكلامى ، رغم ما فيه من نقد ساخر منه ، غير أنه بشرنى بعدها بيومين بأن "منعم" وقع عقد إيجار شقة

"العمرانية" واندعشت جداً، أول مرة تلك التى يوقع فيها صاحب شقة مفروشة عقد إيجار مفروش لمستأجرين مؤقتين، كل الشقق المفروشة التى سكنا بها بداية من "كوبرى الخشب" ومروراً بـ"بين السرايات" وانتهاء بـ"أبو أمانة"، كلها نقيم بها تحت رضا صاحب البيت، يطردنا منها وقتما يشاء، أى إذا اشتكت زوجته أو ابنته من قلة أدب هؤلاء الشباب.

وكانت الشقة الجديدة بهية حقاً وبهيجة، لكنها كانت ضيقة: غرفة داخلية ثم ممر متصل بصالة يقسمها نصفين ستارة يتحول جزء منها إلى مدخل لو أسدلت تلك الستارة.

واختار لى "منعم" المبيت فى الطرف الأخير من الصالة على كنبه بلدى قديمة بجوار البلكونة، فيما اختار هو الغرفة الداخلية - ذات السريرين الكبيرين - له ولـ"منيب"، ثم انضم إليهما فى الغرفة شقيقا "منعم" اللذان يعملان طوال الليل بائعين فى سوبر ماركت، وبذلك - كما ارتأى "منعم" - سيخفان من ثقل الإيجار عندما يتوزع بالتساوى على الجميع، ثم إنهما سينامان بالنهار على نفس سريري "منعم" و"منيب" بينما الاثنان اللذان ينامان فترة ليلية، يكونان فى أشغالهما.

فى البلكونة، شكّا لى "منيب" من أعباء العمل الجديد فى التليفزيون، وشكوت له من الضغط العصبى الذى يسببه لى احتمال متطلبات "منعم"، وقلت له إنه لا يشارك فى أى عمل بالشقة، لا طببخ ولا غسيل أطباق من بقايا الأكل ولا كنس ولا إحضار الخضار،

مكتفياً بأن إخوته يقومون بمهامه، أى أن أعباء المعيشة بالشقة تتوزع على ثلاثة: أنا و"منيب" و"منعم وشركاه".

اكتفى "منيب" بهز رأسه فى أسى كعاداته، بما يعنى اتفاقه معى تماماً، وقلت لنفسى إننى سأأخذ هذه المرة الموقف الذى يجب علىّ اتخاذه دون تردد، وسيتبعنى "منيب"، وبدأت بالانسحاب من أية مشاركة فى أعمال الشقة مكتفياً بالمتربن المربعين اللذين يخصاننى فى الشقة، بجوار البلكونة، من أجل الضغط حتى يجرى توزيع الأعباء بشكل عادل على الجميع، مع مراعاة الحريات الشخصية فى الطعام والشراب والموسيقى.

رفض "منعم" جملة وتفصيلاً كل طلباتى، وأبلغنى عبر شقيقه الأوسط الذى كان زميلاً لى ولـ"منيب" بالجامعة، بأننى شخص غير مرغوب فى وجوده بالشقة، فتمسكت بحقى فى البقاء بها ما دمت منتظماً فى دفع الإيجار، وشرحت لأخيه أن مسألة توقيع "منعم" على عقد الإيجار منفرداً، لا يعنى حقاً إضافياً له يميزه عنا، هو مجرد إيجار شكلى، أما العرف، وأما أمام الله، فالحق أبلغ، وبدأ لى أن أخاه لم يفهم، ثم تدهورت الأمور، ورفض "منعم" تسلم الإيجار منى، كالمعتاد عندما يجمع من كل واحد منا نصيبه من الإيجار ليسلمه لصاحب البيت، رفض هذه المرة فذهبت لصاحب البيت وسلمته نصيبى من إيجار الشقة قبل مواعده بأسبوع ففرح وأخذه.

ليلتها جاء "منعم" مبكراً من عمله على غير العادة، ودخل غرفته متجاهلاً إياى، وسمعت همهمات الغاضبة مع إخويه اللذين لم يكن قد

حان بعد موعد ذهابهما لعملهما في السوبر ماركت ، ثم جاءني صوت أخيه ورفيقي القديم بالجامعة منادياً لى ، وبمجرد أن دخلت دفعنى "منعم" ناحية الحائط ، ثم هجم علىّ ممسكاً عنقى الضئيل بكفيه وضغط بعنف ، أحاول أن أنزع كفى "منعم" دون جدوى ، ولحت بعينى الجاحظتين شقيقه رفيق الجامعة الذى نادانى قبل قليل ، يولى وجهه بعيداً عنا ، وشقيقه الأصغر يقف خلف "منعم" فى تأهب :

- هتمشى ولا نرمىك بشنطتك من البلكونة ؟

وأنا أهبط درج السلم حاملاً حقيبة ملابسى القديمة وكتبى فوق ظهرى ، طفرت من عينى دمعة مألحة ، وعدت بلا مأوى أخطو على الأرض متثاقلاً مثل دابة ضئيلة ضالة .

ثبت هذا المشهد طويلاً فى مخيلتى ، وظللت أتذكره كأنما أهدق فى شريط سينما يمر أمام ناظرى ، كلما اندلج خلاف مع زوجتى العفيفة العنيفة ، لأجد منها ما لا يحتمله زوج ، ولألح فى عينى ابنى الوحيد نظرة احترت فى تفسيرها ، نظرة محايدة ، وربما يخفى عنى - أدباً - نظرة احتقار واستصغار ، أحاول كثيراً فهمها ، فلا هى مثل نظرة شقيق "منعم" الأصغر المتحفزة للقتال متضامناً مع شقيقه ، ولا هى مثل نظرة زميل الجامعة ، شقيق "منعم" الأوسط الحائرة ، وكنت أخشى أن تطردنى هى أمام أولادى كما تهددنى دائماً بصوت عال يتناهى لأسماعهم بالتأكيد ، مثلما فعل "منعم" بمعاونة إخوته ، ومثلما فعلها رئيس الجامعة مجاملة لضابط أمن الدولة الذى دخل محاضرتى بلا استئذان ، وإذا طردتنى زوجتى ، كيف يمكننى أن أرفع

عينى فى عينى ابنى بعدها، ما أجملهما عيناه المعبرتان عما بداخله، الثاقبتان لما بداخلى، وما كان أجمل خطوته الواثقة الشابة الطائرة على الأرض كأنما لا تلامسها، وهو يلوح من بعيد عصر ٢٥ يناير قادمًا باتجاه المقهى، هو امتدادى الدنيوى الذى صاغته يد حكيم قدير، ليمنحنى معنى أجمل لحياتى، كان يتهدى نحوى وأنا جالس منتظرًا إياه على المقهى، اصطنعت التجهم رغم فرح فؤادى بمرآه سليمًا معافى، وسلم علىّ فى ثقة وتواضع، رغم أنه يعلم أن ما يفعله مخالفة، فإن فى عينيه إيمانًا و يقينًا بأن ما يفعله صواب، من أين جاء هذا الفتى بكل هذا الوجدان الراسخ وأنا الذى لم أورثه سوى الضلالة والضلالة واللاثبات، وميوعة الأفكار وسيولة المواقف؟ أشرت له بالجلوس، واتصلت بأمه أطمئنها فقالت لى إنه لا يكف عن إرسال الرسائل لها ليطمئنها على نفسه هو الآخر، لكنه لا يريد أن يرد على اتصالها لتلا تعنفه وتأمره بما سيرفضه، وطلبت هى أن تسمع صوته وتكلمه فدفعت بجهازى المحمول إليه، وتناهى لسمعى صوتها الصارخ فيه، وهو يحاول أن يهدئها، وفى أثناء ذلك أخذت بلا استئذان منه جهازه المحمول وأخذت أقلب فيه، داهمنى فضول لقراءة رسائله لأمه، ووجدتها:

— أحبك يا أمى، ومصر هى أمى زيك بالظبط، ويا بخت من كان له أمين.

ثم يرفق الرسالة بوجه ضاحك.

ورسالة ثانية:

- أنا بخير يا أغلى ما عندي، بس مصر مش بخير، ترضى لما تكونى عيانة، بعد الشر عليكى، وتندهى علياً ما تلاقيش جنبك .

وثالثة :

- عمر الشقى بقى، ما تقلقيش علياً، لسه كنت واقف جنب ظابط أمن مركزى وقلت له اضربونا بشويش، وجنبه عسكرى غلبان دعا لنا يا أمى، ينفع الغريب يدعى لنا وانتى لأ؟

ظفرت من عيني دمعاً مالحه ذات مذاق مثل تلك التى تذوقتها يوم طردنى ذليلاً "منعم" وأخوته، ورئيس الجامعة وضابطه، فحجبت عنى رؤية باقى الرسائل، هل طردنى الولد من حياته؟ ولا رسالة واحدة لى تهديئ مخاوفى وقلقى عليه، ولا واحدة مثل تلك التى يرسلها لأمه؟ وأنا الذى اتصلت به مراراً وأرسلت له رسالة أودعت بها هلعى عليه، ولا رسالة يا ابنى؟ هل تحتقرنى إلى هذه الدرجة؟ هل تعتبرنى مناضلاً قديماً متحولاً متخلياً عن القضية؟

ساعتها هل "منيب" من بعيد، وكان هو أملى الأخير فى أن أثنى ابنى عن رأيه، رغم كل شىء، رغم خذلانك لى كل مرة أعلق فيها أملاً عليك يا "منيب"، فإننى أعتبرك من أفضل من عرفت، يكفى أنك لا تؤذبنى ولا تخيفينى، فقط ربما أنت بلا فائدة لى تذكر حتى الآن .

لقد ظل "منيب" -منذ سنوات طوال- فى شقة "العمرانية" بعد طردى منها دون أن يتخذ موقفاً او احتجاجاً من أى نوع، ولم يسكن أحد مكانى من بعدى، فقد كان مترين مربعين لكائن بشرى زائد عن

الحاجة دائماً، لا يقبل به إلا من يريد يومين لا أكثر للمبيت، وتزوج "منيب" ابنة عم "منعم" بترشيح منه بعد واقعة طردى بسنوات قليلة.

جلس يكلم ابني، فتأملته ساعة، كان يحاول مثل حكيم إقناع ابني بخطأ تفكيره، لأول مرة أدرك أن لـ"منيب" وجهة نظر فيما يجرى حوله، أعنى وجهة نظر تبدو متسقة، كنت أعتقد أنه يتحرك فقط بناء على بوصلة المنافع والمضار دون أساس فكري لما يقول، نظرة ابني له تصيبه بالارتباك هو أيضاً، وأيقنت ساعتها أنه لا فائدة، لقد أقنعتني من قبل يا "منيب" لأنني كنت راغباً فيما أقنعتني به، لو كنت أملك ذرة من صلابة ابني، ذرة من وجدانه الراسخ، ربما لكان حالي غير الحال، ولربما اجتذبتك لمنطقي ومنطقتي يا "منيب"، أنت انتصرت على دائماً، وابني انتصر عليك بمجرد نظرة وابتسامة ساخرة مقتضية، يمنعه أدبه الجرم من أن تكون فجة.

ورغم قلقي على ابني من إصراره على المضي في طريقه، فقد نظرت إلى "منيب" نظرة انتصار بزهو المنتقم الذي وجد من ينتصر له بعد طول قهر، انتصر ابني على "منيب".

ما للجمال مشيها وثيداً ١٨ يوماً، انتصر في بداياتها ابني هو ورفاقه على الشرطة ظهيرة جمعة الغضب وتدفقوا من كل مكان على ميدان التحرير، واعتصموا به من يومها ولمدة أسبوعين، وما هو ابني يجول في الميدان محمولاً على أكتاف رفاقه، يهتف وعينه الباقية تفيض بشغف أبدي لمجد جليل.

والتفت في صبر نافذ ناحية جامع "عمر مسكرم" : ألا يخف الزحام أبداً أمام حمام الجامع كى أجد فرصة لأتطهر؟ وكيف يخف والقادمون للميدان لا ينقطعون؟ منعوني عن التطهر بخذلانهم قبل عشرين عاماً واليوم يمنعوننى التطهر بإقدامهم، لقد أصبحت عالقا على حدود النجاسة والطهر، حدود الخلاص والخطيئة، مشوش الفكر، فلا طريق للعودة ولا طريقة للتطهر، العودة لشقتى النائية خطر فى ظل انعدام الأمن بعد اختفاء الشرطة، وربما اختطفنى أمن الدولة لإجبار ابنى على التراجع، والذهاب إلى الفيلا القريبة بالقاهرة سيجعلنى فى مرمى حاسة شم زوجتى التى لن يصعب عليها اكتشاف رائحة عرق "فاتن" المختلط برائحة عطرها الرديء، كما أن زوجتى ستتركنى أدخل الحمام لأغتسل لتبدأ فى شم ملابسى، حتى الداخلية منها.. هل أنزل النيل بعد أن يهبط الليل ويغضى عورتى؟

وكانت تلك أول مرة يخطر على بالى فيها مثل هذا الحل، وأنا الذى يكره الماء البارد، ولم أنزل يوماً فى حمام سباحة نهائياً، أفأنزل النيل ليلاً مستتراً بالظلام؟ معقول!

ورأيت مئات من الملتهجين فى الطوابير أمام المسجد، وداهمنى خاطر ليس هذا وقته أبداً :

هل يطردنى هؤلاء الملتهجون من حياتهم بمجرد كتابة العقد باسمهم، مثلما فعل "منعم" لأن العقد كان باسمه؟ أقصد بمجرد كتابة العقد الاجتماعى الذى سنصوغ على أسسه أساس مصر

الجديد، لا تلك التي يسكنها الرئيس، مصر الجديدة حقاً التي تسع الجميع، المؤمن والفاجر، هل يعتبرون الديمقراطية سلماً يصلون به للحكم ثم يرفسونه بعد صعودهم لئلا يصعد ورائهم أحد؟ ما الذي يمنهم؟ عهد؟ إيمان؟ رأفة؟ حكمة؟ لقد كان "منعم" وهو يطردني، تتلبسه كل تلك المعانى، طردني بلا رحمة ولا تأنيب، وكان مثلهم مؤمناً ينتمى للجماعة الإسلامية، لن يمنهم إلا يقظة ساكنى الشقة، أقصد ساكنى الوطن، وحدهم ساكنى الوطن. لم تبق دمعات مألحة فى المآقى يا "منعم"، فالمقتلة الكبرى تورث الدماء لا الدموع.

آآه .. تعبت من السير فى ركاب الشباب خلف ابنى ، فجلست
على سور صينية الميدان ، وتذكرت "أغنية الكعكة الحجرية" ، أجمل
أشعار الراحل "أمل دنقل" عندى ، وحدق عقلى فى البيت القائل :
"دفعته يد .. أدخلته يد الله فى التجربة" ، هل أدخلتنى يد الله فى
التجربة عنوة ؟ أم أنه يحاصرني بخطيئتي ويلفني فى نجاستي ليلقى
بى مثل جيفة فى أقرب حفرة أبدية عما قريب ؟

رين هاتفى لا ينقطع ، لا تكف "فاتن" عن الاتصال بى ، تريدنى
أن أذهب إليها فى الشقة لأنها مرعوبة ، وأنا أكرر لها أننى لن
أتمكن حتى من الوصول إليها ، فبالتأكيد سوف تستوقفنى إحدى
عصابات سرقة السيارات وينزلونى من السيارة ، ويأخذونها
ويمضون ، وربما لن يتركوا لى أجرمة ميكروباص أذهب به لأى مكان ،

وأضيف لها قائلاً إن التحرير هو أكثر الأماكن أماناً اليوم .
لا تهدأ وتواصل الاتصال ، لو رددت على اتصالها ، فسوف تكرر
نفس الطلب ، وحتى لو كانت تواجه كارثة ، فماذا عساي أفعل لها
وأنا على بعد عدة كيلومترات عنها ؟

يرن الهاتف مجدداً للمرة الخمسين ، لن تتركني حتى أرد ، رددت
وبمجرد أن جاءني صوتها قالت : أنا في التحرير ، إنت فين ؟

- إيه ؟ إيه اللي جابك ؟

- مش سامعك من الدوشة ، انت عند إيه بالضبط ؟

قلت بنفاد صبر وأنا أتلفت لتلا يرانى ابني :

- عند صينية الميدان .

- أنا كمان عند الصينية

وتلفت باحثاً عنها في الزحام ، وبعد دقائق وجدتها ، فارتمت في
حضني ، فأبعدتها مفزوعاً ، الكاميرات مسلطة على الميدان يا
مجنونة ، ربما رأيتني زوجتي وهى تشاهد قناة " الجزيرة " .
قالت :

- وحشتني يا حبيبي ، كنت هاموت من الرعب في الشقة الليالي
اللي فاتوا من غيرك .

- طب روحى شقتك دلوقتى حالا .

قالت :

- طيب خلينى معاك شوية ، آمال فين الثورة ؟

أشرت ناحية الناس وقلت :

- هي دى الثورة .

تلفتت حولها وهي تنثنى تلم ذيل فستانها أسفلها ثم جلست
القرفصاء على الأرض ، بطريقة ذكرتنى بتلك البيضاء الجميلة التي
كانت في مظاهرة جمعة الغضب ٢٨ يناير ، تنثنى لتلقط الحجارة
وتعتدل لتلقى بها على جنود الأمن المركزي وهي تهتف في حرقه
وانتقام ، وكأنها ذات ثأر شخصى معهم :

- الشعب يريد إسقاط النظام .

واكتشفت أننى لست وحدى الذى يراقبها خلسة ، خوفاً من أن
يرانى ابنى الذى يهتف بجوارى :

- الشعب يريد إسقاط النظام

ثم يغشى فى الاندفاع ناحية الصفوف الأولى من المتظاهرين
بعدها دفعنا خراطيم مياه الجنود وقنابلهم المسيلة للدموع إلى وراء
فى ميدان الجيزة ، ووجدتنى غير قادر وربما غير راغب فى الهتاف ،
واحتمينا بمحطة وقود نغسل بخراطيمها وجوهنا المعفرة بالغاز
والتراب ، متجنبين -وفق نصائح التوانسة لنا- أن نغسل أعيننا
بالمياه حتى لا تؤلنا ، واكتفينا بغسلها بالكولا وتدليكها بالخل بعد
شم البصل ، كما فعل التوانسة .

كانت تنثنى وتعتدل ، كأنما ترجم رمز الشيطان فى يوم الحج
الأكبر ، وعباءتها السوداء التى تكشف عن هويتها الشعبية ، تحتضن
أيضاً جسداً فائراً مكتنزاً ، تبرز استدارته وتضاريسه البضة فى
انشاءتها المثيرة ، وتفيض جاذبيتها الشاهقة كبركان عندما تنتصب ،

ثم تنحسر أكمام العباءة عن بياض عال لذراعها الممتدة لأعلى بطوبوة، وينحسر ذيل العباءة عن بياض لساقها، عميق متدفق كالشلال، وهتفت بها لنفسى: بلقيس أنت، أيتها الفائزة بالأنوثة والثورة، ليتنى لم أعلم ولم أدرك، ليتنى كنت -مثلك- ثائراً ثورة عذراء، لكننى مثل كل أولئك المتناثرين حول المتظاهرين، المترسين بالخفاء، المترسين بالسياسة، المدركين لألعيبها، أصحاب التنظير والتشوير، أعرفهم جميعاً، يراقبون بأعين ثعالب ما يجرى، يحافظون على أنفسهم لأنهم يظنون أنفسهم رؤوس الثورة ورموزها الذين سيجلسون للتفاوض ويحصلون ثمرة مروية بالدم، كثير من هذه الوجوه أعرفها، رأيته على سلالم نقابة الصحفيين فى وقفات "كفاية"، وعند الكعكة الحجرية أمام جامعة القاهرة، وبجوار دار القضاء العالى، فى كل تجمع كنا نحتشد فيه -كنخبة سياسية- نهتف عسى أن يقع شىء ما مستحيل، وأعين الشعب -الشائر اليوم- كانت وقتها تنظر لنا فى استخفاف وإشفاق ويأس ولوم.

جمعة الغضب النبيل، يوم تأملته وتأملت صاحبة العباءة كنت فَرِحاً، نعم، لكنها فرحة مكسورة، مبتورة، مثل فرحة امرأة انتظرت طويلاً ليلة عرسها ودخلتها، فلما جاءتها، كانت قد انقطع الطمث عندها، وتجمد جلدُها، وانطفأت روحها، غير قادرة على الصراخ من لذة المعاشرة الأولى، لكنك عذراء الثورة أنت، بلقيس التى تكشف عن ساقها فى بلاط صاحب الجلالة الحكيم، وقد جىء لك بعرشك، فاجلسى عليه يا امرأة، هو لك، فرحك وفرحتك.

جمعة الغضب النبيل ، يوم أفلت ابني منى ناحية قوات الأمن ليرجمهم ، هل أتيت لأحرسه ؟ وساءلت نفسي فى جزع :
هل مكثت معه خارج البيت أربعة أيام منذ ٢٥ يناير وحتى ٢٨ يناير -جمعة الغضب- لكى أحرسه فقط ؟ أمه أخبرتنى -كما توقع ابني- أن ضباط مباحث أمن الدولة لا يكفون عن السؤال عنه كل عدة ساعات ، فاصطحبته متنقلاً معه بنجاستى بين بيوت أصدقائه ، واستحييت أن أطلب أن أغتسل فى بيت أحدهم ، وهم لم يطلبوا منا ذلك رغم رائحتنا الطافحة بالنتانة .

ودق قلبى فى قلق عنيف وهو بعيد عني بعدما أفلت منى ، وقالت لى هواجسى إنه ليس بخير ، ولحته من بعيد ، فاقتربت منه وأمسكت به ، وقررت هذه المرة أن أحجزه فى مؤخرة صفوف المتظاهرين ، بعدما أقنعتته بأننا يمكننا أن نؤدى دورنا تجاه البلاد بتقديم الكولا والخل والبصل للمتظاهرين لكى يغسلوا بها أعينهم لإزالة أثر قنابل الغاز ، وأخذته من يده ومشينا ناحية محل يبيع السجائر والمثلجات والمكالمات للمتظاهرين ، واشتريت من هناك عدة زجاجات كولا كبيرة ، وأخذنى هو من يدى وهرول بى ناحية المتظاهرين الذين بدأت معدلات الإغماء تتزايد بينهم ، ثم ظهر مصابون ، وسمعنا عن شهيد ، وقرأت الاندفاع فى عيني ابني ، فاصطحبته مجدداً لشراء المزيد من الكولا ، فوجدنا البائع يقدم صناديق الكولا الفارغة للمتظاهرين مجاناً طالباً منهم بأن تكون درعهم إزاء الضرب العنيف بالخرطوش وقنابل الصوت والغاز ، وقدم

كذلك زجاجات الكولا الفارغة شارحاً كخبير أنها لو جرى ملؤها بالبنزين من الخطة القريبة، ووضع فتيل مشتعل بها، فسوف تتحول إلى قنبلة صغيرة لكنها مؤثرة، تسمى المولوتوف.

وحمل ابني صندوقين فارغين بمفرده، وهو الضئيل الضعيف، وهروا بهما ناحية المتظاهرين، أحاول أن ألحق به.

اختفى فاضطربت، ماذا سأقول لأمه، غفلت عنه للحظة؟ بينما لم أغفل عن أنثى فاتنة يا زوجتى العزيزة؟ أنثى ثائرة فائرة جذبتنى لأنك غير مشبعة لى، لأنك محتكرة لى، لأنك محتقرة لى؟ أما هى لفاتنة مثل "فاتن" التى كانت وقتها مرعوبة فى شقتى، تعيش على بعض الطعام الموجود فى ثلاجتى، وتتصل بى -قبل قطع السلطات للاتصالات- فى ذعر راجية منى أن آتى لآخذها، كيف وابنى معى، وأنت يا زوجتى ملهوفة على ابنك الذى عاد لى بعد اختفائه عصر تلك الجمعة متسنداً على اثنين من الشباب، تنهمر الدماء من عينه التى فقأتها شظية الشرطة.

هى اللحظة الفارقة الغارقة، المطبقة فى الصمت والذهول، التى سكنت العالم فيها من حولى، صممت صوت قنابل الصوت وراحت رائحة قنابل الغاز، كأنما توقفت البنادق عن الضرب، وكف المتظاهرون عن الهتاف، لقد سكن العالم لثوان، انحدرت خلالها دمعة مالحة على أخايدى خدى، أعرف مذاقها الذى تجرعه مراراً، كبرت مائة عام فجأة، ولطمنى على وجهى "منعم" وزوجتى وضابط أمن الدولة ورئيس الجامعة، يريدون طردى من عوالمهم الرديئة،

يصوبون الآن رصاصة ناحية عين الحلم، يفقأون عين المستقبل،
وانكفأت على الأرض دافعاً الجميع جانباً هاتفاً فيهم:
- أنا أبوه.

وجذبني بعضهم:

- سيب الدكتور يشوف شغله يا حاج.

وبعدما قام طبيب متطوع بتضميد عين ابني الذي تمدد على
عشب حديقة ميدان "الجيزة"، انتصب ابني واقفاً مجدداً مثل عمود
نار، ومضى مثل فهد، أسابقه لوجهته ناحية تشكيلات الأمن
المركزي، لا أعبأ بنجاستي، ولا بوظيفتي، ولا بشهوتي، ولا بخوفي
على ابني الذي ارتمى على الجنود بعينه الواحدة فتفرقوا - يا
للغربة! - ذات اليمين وذات اليسار، وكنت خلفه أحمي ظهره
وحولنا متظاهرون كثيرون ينتزعون الدروع والخوذات وبنادق
الخرطوش ومدافع القنابل، والجنود يتفرقون، وأنا أتحرر، أتحرر، الآن
أتحرر، وانتزعت عصا جندي ولوحت بها بعنفوان في وجوههم
فتراجعوا، أنا أتحرر، أتقدم ويتراجعون، أطاردهم وأطردهم، أطردهم
وأأتحرر، وكانت البيضاء ذات العباءة على بعد مترين مني، تقذفهم
بالطوب والتراب، وكان ابني بعينه الواحدة يصرخ في وجوههم،
وعلا الهتاف مجدداً في السماوات:

- الشعب يريد إسقاط النظام.

وانا ألوح بالعصا في وجوههم دون هتاف مثل أخرس ينفجر
غضبه في حركاته العصبية وصرخاته العفوية، والبيضاء ذات

العباءة، لا تزال تفاصيل قدها المتماوج الممتلئ قليلا تبرز وهي
تنثنى لتلتقط قطع الأحجار ثم تنتصب لتلقيها، تغيب وتأتى بين
الجموع المحتشدة، فتلفت أنظارنا جميعاً لها، بعباءتها السوداء
الضيقة، وخصلات شعرها التى انسدت قليلاً من تحت الحجاب
جراء الجهد الكبير، وبدت عيناها حمراوين وجميلتين أيضاً من
قسوة الغازات المسيلة للدموع التى أطلقها الجنود.

وعندما اشتط الجنود فى الضرب، واشتد ضغط الجماهير على
الجنود المتمرسين وراء سياراتهم وتحت خوذاتهم، انهاروا وفروا، ثم
تجمعوا عند عرباتهم الكثيبة، واستقلوها وهربت السيارات
وبعضهم يحاول اللحاق بها، فيفشل ويخلع ملابسه ويستسلم،
أحدهم ضربه متظاهرون وحماه آخرون.

انفتح الطريق، لا أحد أمامنا، وتسلق ابني سور ميدان الحيزة
وهتف مثل زعيم أسطورى خرج من كتب التاريخ:

- ع التحرير . . ع التحرير .

وأشار بيمناه - سلمت يميناه - ناحية الاتجاه المؤدى إلى ميدان
"التحرير"، المسافة بعيدة، نصف ساعة من السير على الأقل،
واندهشت كيف سنقطعها مشياً؟

ياااااا، منذ زمن وأنا لم أمش مسافات طويلة، عندما كان آخر
أتوبيس لـ "أبواتاة" يفوتنى كنت أمشى نصف ساعة على قدمي بلا
تعب، ويوم جرئت خلف آخر أتوبيس وتعثرت فانكفأت على
وجهي فى مياه مجار كانت قد طفحت من بالوعة قريبة، مسحت

وجهى بورقة جرائد كانت ملقاة فى الشارع، ونظرت فى المانشيت فقرأت: الرئيس يفتتح محطة للصرف الصحى، فمشيت نصف ساعة فى منتصف الليل، من وسط البلد ماراً بميدان التحرير إلى "أبواتاة"، فوجدت المهندس "عثمان" المنتمى للإخوان المسلمين يتوضأ ليصلى قيام الليل، ونصحنى بالاغتسال بدلاً من الاكتفاء بالوضوء، لأن ما غمرنى من نجاسة ربما يكون قد تسرب إلى ما تحت ملابسى، وكانت تلك أول مرة أغتسل لأن الأتوبيس فاتنى وليس لأننى ركبت الأتوبيس.

جمعة الغضب الفاتحة، كانت مثل برق يضىء عتمة الطريق، والشوانى التى وقفت خلالها أفكر فى صعوبة المشى كل هذه المسافة نحو ميدان التحرير، كما أشار ابنى، كانت كفيلة بأن تجعل المتظاهرين يسبقوننى بأمطار: ابنى والبيضاء ذات العباءة السوداء، وكسير بعكازين، وعجوز محنى الظهر، وجالس على كرسيه المتحرك تدفعه من تبدو أنها ابنته وحولهم عشرات الآف يمثلون كل طبقات الشعب، وملتح شاب يدعو الله على الظالمين وأنا أربت على كتفه موافقاً.

وحتى لو لم يكن كل هؤلاء سائرين، هل كنت سأترك ابنى يمضى بدونى؟

وهرولت ناحية مقدمة المظاهرة، وبلغت ابنى وقلت له إننى أخشى أن يكون انسحاب الأمن كميناً، وكان فى كلامى نبرة حكيم خبير بمسائل السياسة والأعيب الأمن، لكن ابنى ربت على كتفى

وطمأننى ، لم يكن هناك من يبلغه بالتأكيد أن الطريق آمن ، لأن الاتصالات المحمولة مقطوعة ، كل ما كانت هنالك دراجات بخارية تروح وتجيء ، أحياناً تمضى بطيئة عندما يكون عليها مصابون ، وأحياناً تمرق كالبرق ، هل كانت تحمل تكاليفات لقيادات المظاهرات من قيادات تنظيمات سياسية ؟

كان الشباب ينظرون للبيوت ويشيرون للشرفات ويهتفون :
- يا أهاليها انضموا لينا .

وكانت الشرفات تضحك لنا وكانت البيوت تربت على أكتافنا ، وتهتف معنا وتشير إلينا بعلامات النصر ، كانت مصر تزحف على الأرض وتنظر من السماء ، ويردد هتافنا كل حجر فى كل مبنى من كل مكان ، العيون التى طالما نظرت لى بإشفاق وسخرية ، الآن تفيض فرحاً ، دفعت أنا ثمن فرحتها من قبل من وقى وأعصابى ، ودفعتها يوم جمعة الغضب من عين ابنى ثمناً ، والأعداد تتزايد فتبدو مثل ثعبان ألعاب الكمبيوتر ، كلما مضى يلتهم نقاطاً يزداد طولاً ، ونظرت خلفى فبدت المظاهرة بلا نهاية ، مررنا على كنيسة إنجيلية بشارع مراد فتغير الهتاف :

- تحيا مصر .. يحيا شعب مصر .

ومشت الجموع بالآلاف ، وتقاطروا من كل مكان ، وبانت صاحبة العبادة بينهم واتجهت أنظار كثيرة نحوها ، وهى لا تلتفت لأحد ، وكأنما وراءها واجب ثأر عظيم تريد أن تنهيه ، هل اغتصبها أحد الضباط فى مكتبه ؟

لم تستجب للمعاكسات القليلة المرححة التي تلقتها من شبان صغار على وجوههم دماء وفي رؤسهم جروح ، وهمت بالجلوس لكي ترتاح قليلاً من الجهود الجبار الذي بذلته ، فانشئت تلم ذيل فستانها لتجلس على الرصيف في وضع القرفصاء مثل "فاتن" التي استقرت أمامي في وضع القرفصاء وسط صينية الميدان وجذبتني للأرض لأجلس بجوارها فأشرت لها ناحية ابني :

- ده ابني يا "فاتن" ، شايفاه ؟

وبحثت عنه "فاتن" بعينين حائرتين يملؤهما الفضول والجمالة

فأردفت :

- اللي الناس شايلينه ده يا "فاتن" .. اللي بيهتف هناك ده .

رأته هي :

- أبو عين واحدة ده ؟

انغrust كلمتها الموجهة في قلبي فبكيت :

- أنا السبب ، غفلت عنه .

- يا خويا ده مكتوب ونصيب .

ثم تأملته هي مجدداً :

- احمد ربنا إنه بصحته ، غيره مات .

- أيوه ، شلتهم بإيدى دى يا "فاتن" ، شباب زى الأسود ، كانوا

بيرموا أنفسهم على حشود الأمن ، ويقفوا قدام مدرعات الشرطة .

وسرحت تنهمر في عقلى آيات الإعجاز التي رأيتها بعيني ،

وسجلتها كاميرات المتظاهرين .

وحكى لها :

ومررنا على كوبرى الجامعة الذى تطل عليه سفارة إسرائيل ،
فأوما متظاهر بجانبى لصاحبه ، فرد عليه :
دورها جاى .. مش دلوقتى .

ومررنا على مديرية أمن الجيزة فلوح لنا بعلامة النصر جنود
يحتشدون فوق مبناها كأنهم أسرى حرب يطلون على الحرية ،
والضباط ينظرون إلينا من نوافذ المبنى وابتسامة غامضة ترف على
أفواههم فتطير النجوم والنسور والدبابير فى مرح محلقة حولهم .

يومها جنحت ناحية محل مثلجات وعصائر فاتصلت بهاتف
منزلى ، وطمأنت زوجتى على ، وقبل أن أكمل سألتنى عن الولد ،
فطمأنتها وأنا أقسم كاذباً ثلاث مرات بالطلاق إنه بخير ولم يمسه
سوء ، وأنى أحرسه كظله ، وقالت لى زوجتى إنها لا تطمئن عليه أبداً
وهو معى منذ أن كان صغيراً ، وقلت لها إنه لا فائدة منها ، ستظل
كنها هى ، واشتريت زجاجات مياه وكولا وعصائر ، وأخذت أوزعها
على المتظاهرين من حولى ، وهم يشتعلون بالهتاف :

- الشعب يريد إسقاط النظام .

وكنى لا أزال غير راغب فى الهتاف ، لم أهتف حتى عندما
التحمت معنا الحشود القادمة من المهندسين مع تلك القادمة من
بولاق عند ميدان الجلاء ، وانفجر هدير مئات الآلاف من الحناجر
باستثناء حنجرتى ، كان يغمرنى إحساس بأننى من السابقين الأولين
الذين سدوا ما عليهم من دين الهتافات تجاه الوطن من قبل ، حينما

كانت الحناجر تتحرج عن ذكر النظام بسوء، وتتحشج فيهما الهتافات المناوئة للرئيس، كنت أنا أهتف ثم أصلى فى الشوارع بين نحو مائتين من السياسيين، قبل وأثناء ٢٠٠٥، فى حين لم يكن معنا ولا واحد من كل هذه الآلاف الذين صلوا الجمعة والعصر يوم الثامن والعشرين من يناير، ثم جاءونى بطهرهم يلفون نجاستى ويغطون عليها، نعم، تظاهرت بأنى أصلى الجمعة بين الجموع دون وضوء ولا طهر، نعم تظاهرت بالصلاة مثل عشرات من قيادات تلك المظاهرات الذين أعرف أنهم لا يصلون، بل لا يؤمنون أصلاً بالدين، أو لا يؤمنون بوجود الله أساساً، ومع ذلك وقفوا يصلون صلاة جمعة الغضب بين الجموع فى مسجد الاستقامة بالجيزة، وبمجرد أن انتهينا من الصلاة هتف مصل كان ينهه باكياً وهو ساجد بجوارى طالباً من الله الشهادة:

– الله أكبر ولله الحمد.

فعلمت أن "الإخوان المسلمين" يريدون أن يكونوا أول من ينزع فتيل قنبلة التظاهر وهم يضعون فى نفس الوقت بصمتهم، ربما لأن الدكتور "البرادعى"، العالم العالمى المعروف، والذي دخل مضمار السياسة حديثاً، كان يصلى معنا فى نفس المسجد بعد وصوله من خارج البلاد ليلة جمعة الغضب عندما علم أن الشعب خرج يوم ٢٥ يناير، وفيما يبدو كره الإخوان أن يبرز وحده فى اللقطة الأولى للمشهد، وهو على أية حال، حصل على الدفقة الأولى من خرطوم مياه الأمن المركزى، وخيّل إلى أن جندي الأمن المركزى الذى بدت

سحته صعيدية يقول له وهو يمسك بمدفع المياه من فوق المدرعة :

- اوعى من طريق المياه يا عم الحج .

لا بد من أنه لم يكن يعرف مكانة الدكتور البرادعى كرئيس سابق لهيئة الطاقة الذرية العالمية، الحاصل على جائزة "نوبل" للسلام، ولم يكن الجندي مدركا لحصانته، تلك التى أقنعت ابني بأنها ستحمينا لو وقفنا خلفه، بين كوكبة من الكتاب والمفكرين، لكن الجندي الصعيدى لا يعرف البرادعى، لذلك لم يعطه حصانة من ضربه بالمياه، ورأيت رجال "البرادعى" وشقيقه يحوطونه متجهين ناحية المسجد، ثم اختفى عن المشهد تماماً ليبقى فى الملحمة وحدهم شباب من عمر ابني أظهروا أداءً بطولياً، يلاعبون الأمن المركزى وكانهم فريق محترف شغب ومظاهرات، ويدحرجون قنابل الغاز بعيداً عن الجموع وكأنها كرات شراب من تلك التى كنا نلعبها فى الحواري صغارا، حتى شقوا الطريق إلى حيث وقفنا يومها فى ميدان الجلاء، ولا بد أن أبطال "بولاك الذكور" و"المهندسين" من الشباب فعلوا نفس الأمر فى مناطقهم بدون غطاء "البرادعى" الدولى .

لم يستغرق وقفنا عند صينية ميدان "الجلاء" أكثر من نصف ساعة، ثم تحركنا ناحية كوبرى الجلاء، لأجد عربتين من ناقلات الجند الضخمة وقد استسلمت، واعتلاها الشباب ورفعوا عليها علم مصر وكأنما هى من غنائم العدو، ورأيت ابني يحشد الناس ناحية ميدان التحرير، فأعطيته جهازى المحمول وطلبت منه أن يصورنى وأنا فوق ناقلة الجند، وصعدت وابتسمت للكاميرا ملوحاً بعلامة النصر، وبعلم مصر .

(٧)

غفت "فاتن" لحظة وأنا أحكى لها عما حدث ، وكانت تستند على جذع شجرة صغيرة فى صينية الميدان وأيقظتها مغتاضاً :

- هو أنا باحكيك حكاية قبل النوم يا حلوة؟

- معلش يا خويا ، أصل المكان هنا مريح ويرد الروح .

يرد الروح ، حقاً يردّها ، لكنه ابتلع أرواح مئآت من خيرة الشباب ، من أجل أن يرد روح أمة ، ووصلنا إليه بطلوع الروح ، وكثيراً ما أحسست طوال الأيام الماضية الطويلة أن أرواحهم ترف حولنا ، تلهمننا الصبر والثبات ، وتمنحنا نوراً نمشى به فى الأرض مبصرين ، وتأملت "فاتن" التى بدت أنها لم تنم منذ عدة ليال :

- شكلك ما كنتيش بتنامى كويس .

- أنا ما؟ ده المنطقة هناك هس هس ، وكل عينى ما تغفل أسمع

ضرب نار، أقوم مفزوعة، ولولا الشباب فى المنطقة كانوا بيسهروا فى المنطقة ويخبطوا على يسألونى إذا كنت عابزة حاجة و... قاطعتها صارخاً فيها :

- بتقولى إيه ؟ شباب المنطقة، هم عرفوا إنك فى الشقة إزاي ؟
- أصل المية قطعت وخبطت على الشقة اللى جنبنا وطلع ساكنها شباب ، طلبت منهم ميه أشرب، فعرفوا إني مو...
- ليلتك سودا، إنتى إزاي تعملى كده ؟

حاولت "فاتن" أن تبرر لكننى استمررت فى تعنيفها، لم يكن الخوف من أن يعرف الجيران بوجودها فقط هو الذى أشعل غضبى، ولكنه أيضاً الذعر من فكرة أن تكون "فاتن" قد استضافت فى الشقة شاباً أو أكثر، بدافع الخوف، وبالمرة لإشباع رغباتها الفجة الواضوح، تبدو تلك المرأة سهلة الاستجابة لأية كلمة لطيفة، وأكلتنى الغيرة، وأين يجرى ذلك ؟ فى مملكتى ؟ مملكتى التى كنت أريدها طاهرة ؟ وخطر لى أننى لم أشك لحظة فى زوجتى أم أبنائى، وكيف أةتمن هذه اللعوب على شرفى ؟ ولكن ما الذى تغير عندها لكى يجعلنى أتساءل ؟ أليست هى على ما هى عليه منذ عرفتها، سهلة لا تخفى رغبة ؟ أم أننى أنا الذى أصبحت لدى قدرة الرؤية بوضوح، وتقييم الأشياء باستنارة ؟

"فاتن" هذه المرأة الفرصة، تبدو الآن مصدراً للقلق والشك والإزعاج، وتنتابنى رغبة كبرى فى الذهاب فوراً لشقتى لضبط دليل يحسم موقفى منها، هذه الشكوك غير المبنية على دليل قاطع

وواضح، تعيدني إلى منطقة اللافعل، فلا أنا قادر على الاستمتاع بها باعتبارها امرأتى، ولا أنا قادر على اجتثاثها من حياتى باعتبارها خائنة، هى بالفعل غير باعثة على الاطمئنان. ولو كانت هناك أخرى مثلها كحالة فريدة مخلصه صالحة للزواج دون إيجاب لطردت "فاتن" حالاً واستبدلتها بها، ولو كانت أقل منها جمالاً وجاذبية، المهم أن تكون من ذلك النوع من النساء الذى يجعلك تنام مطمئناً على وفائها.

ورغم كل ذلك، تمالكت نفسى ولم أصرح لها بشكوكى وهو جسى، وسرت فى وجدانى حالة لامبالاة لأمرها كله، واستغربت من أنى لم أجد فى نفسى رغبة فيها، وطلبت منها أن نسير معاً بعدما طيبت خاطرهما بكلمتين، وكنت أتعمد أن أحتك بها لعل جسمى يفور بالاشتواء، قاصداً أن تلمس يدي جسدها، لكننى كنت كمثّل جوال ملح، رغم أننى منذ ١٨ يوماً لم أمارس الجنس، وأنا رجل لامرأتين، إحداهما زوجتى والأخرى التفتت إلىّ وقد تقلصت ملامحها:

- ريحتك فظيعة يا حبيبي.

ضحكت فى حرج مبتعداً قليلاً عنها:

- طبعاً، بقالى فى الشارع ١٨ يوم، من ساعة ما كنت معاكى

وانا نفسى استحمى.

ضربت صدرها بكفها:

- يا لهوى.. طب ما تروح يا خويا بيتك ولا يلا نروح شقتنا

استحمى هناك.

- يا ريت يا "فاتن" يا ريت ، بس الواد ابني مش عايز يتحرك من الميدان إلا بعد ما الرئيس يغور عن الرئاسة ، وأمه كل شوية تتصل بيه على تليفوني علشان تتطمئن عليه لما مش بيرد على تليفونها وهو مشغول مع زمائله ، وتتوصيني إنه ما يغيبش لحظة عن عينيا ، وكمان هو عارف انه لو رَوَحَ ، أمه وانا هنحتجزه فى البيت .

- بس بيقولوا خلاص الدنيا هديت شوية .

- الخوف ليرجع أنصار الرئيس يضربوا تانى زى ما حصل فى معركة الجمل يوم الأربعاء قبل اللى فات لما قعدوا يومين بلياليهم يضربوا علينا طوب .

- هو ابنك عينه انصابت فى اليوم ده ؟

لا ، فى جمعة الغضب ٢٨ يناير ، بس فى موقعة الجمل انصاب بطربة فتحت له دماغه ، ونزف حبيبي كثير .

- ربنا يخليهولك يا خويا .

كادت تكمل وصلة دعائها المعتادة فى مثل هذه المواقف ، ومر من أمامي رجل يحمل لافتة كتبها بخط يده الردىء :

- دم ابني فى رقبتك ، مش همشى إلا بعد ما انت تمشى .

كان هو ، نعم هو ، شرطى الآداب الذى ضبطنى و"فاتن" فى السيارة نعبث فى رقاعة ، ابنه الوحيد الذى كان يسعى لتعيينه فى شركة الاتصالات ، مات !

ورآنا الرجل ، وظل ينظر إلينا بعينين تفيضان بحزن العالم ، تلك العينان اللتان نظرتا إلينا من قبل ضاحكة مستبشرة مبتزة ساخرة ،

وظل يتأملنا وكأنا يتذكرنا، ملامحه غضبي، نعم نحن الزوجان المزيفان العابثان يا رجل الأمن، واقترب:

- ابني مات يا باشمهندس، مات، قتلوه الكلاب وهو ماشى فى المظاهرة.. ابني مش هيتعين فى حنة، مش هيحلم تانى بحاجة.

وبكى بمرارة، وتمنيت لو أن ابنه عاد حياً لسعيت له بكل ما أملك لكى أتوسط لتعيينه، وانحدرت دمعة من عيني، تمثلت نفسى مكانه، ونظرت لابنى، وبكيت معه مجدداً.

مضى الرجل مبتعداً بلافتته التى كتبها على ورق مقوى، ومعلقاً إياها على صدره، ولخت بالقرب منه الدكتور "حازم" المستشار فى وزارة الاتصالات يمر بجانبه، مرتدياً نظارة شمسية تخفى نصف وجهه ورغم ذلك عرفته، فالتجعت إليه وسلمت عليه، فارتبك، وقلت له إننى لخت كثيراً من المشاهير والمسؤولين هنا، فابتسم ابتسامة يخفى بها اضطرابه ثم مضى سريعاً وكأنا يهرب منى.

ما هذا؟ لماذا فعل هذا المدعو مستشاراً ذلك؟ هل يظننى هذا المجنون مخبراً يمكن أن أشى به لدى الوزير؟ هل إلى هذا الحد يمكن أن تكون فكرة مثل هذا الشخص عنى؟ هذا... الـ... الـ...
محدث نضال؟

إننى ومنذ وطئت قدمى الوزارة للعمل فى مكتب الوزير، وأنا لا أخفى معارضتى الناعمة للنظام، أيمكن أن يكونوا قد ظنوا بى شراً وأننى من هذا النوع من المخبرين الذين يستدرجون الضحية لكى يفصح عن رأيه ثم يكتبون تقريراً عنه؟ هل لذلك كانوا يتجنبون

المواجهة معي ، بل ويسترضيني بعضهم ، وأنا الذي كنت أظن ذلك حياً منهم في؟

آآآآآه ، فهمت ، فهمت ، يحق لهم بالطبع هذا الظن وأكثر ، فالمشهور عني في الوزارة أن الذي قام بالتوصية عليّ عند مسؤولي الوزارة ، كان زوج ابنة عمتي ، ضابط أمن الدولة المسؤول عن النشاط السياسي ، وعلاقته جيدة بهم لأن ذلك الضابط كان هو الذي يمرر لهم كل التعيينات التي تتم بالوزارة ، وكان في يده منعها ، لذلك لم يتأخر المسؤولون عن تعييني في مكتب الوزير عندما طلب منه الضابط ذلك ، وكأنهم يقولون له : لكي يطمئن قلبك يا باشا ، رجلك في مكتب الوزير علشان ينقل لك عن قرب كل حاجة .

آآآآآه ، فهمت ، لذلك كان الوزير يحاول الاختفاء من أمامي وهو يصلي في مكتبه ، يظل يتحين الفرصة لكي يصلي دون أن أراه ، الآن فهمت ، وأنا الذي كلما غلبتني طبيعتي وتحدثت في السياسة كمعارض ، أجد الجميع يتهربون من الكلام أو يظهرون الولاء المبالغ فيه للقيادة السياسية .

كل هذا التدليل لي ، وكل هذا الإقبال عليّ ، كان بسبب ظنونكم السيئة أيها الزملاء والرؤساء والمرؤوسين ؟ كل هذا بسبب اعتقادكم في أنني عين لأمن الدولة عليكم ؟

وربما ضاعف من هذا الظن الخاطئ ، أن زوج ابنة عمتي بالغ في التوصية عليّ بشكل مفرط ، فهو للأمانة كان يشعرني بشفقتة البالغة عليّ وبتعاطفه العميق معي ، وكنت أتعاطف معه كذلك ، فهو

أيضاً مقيم في شقة زوجته، مثلى، وهو فوق ذلك بلدياتى أيضاً، وكان زميلاً لى بالمدرسة الثانوية، كان طالباً فاشلاً وكان دائماً ما يعايره أهله بى، أنا المتفوق عليه، وتفرقت بنا السبل، أنا لكلية الآداب وهو لكلية الشرطة، ثم تجمعنا بالقاهرة مرة أخرى بعد سنوات طويلة من خدمته فى الأقاليم.

كان كثيراً ما يقول لى عندما نلتقى فى مناسبات أسرية :

- الناس اللى انت بتقف معاهم دول فى المظاهرات، شوية نصابين وعملا عايزين يودوا البلد فى داهية، أنا مش هاقدر أعمل لك حاجة، لو اتمسكت معاهم وشرقت عندنا.

و كنت أجد لذة فى أن أتحدث أمامه كلاماً من ذلك الذى يسميه كلام مثقفين معاتيه، وكأنما أستمتع بعدم فهمه لكلامى، لأستدعى ذلك الشعور الدراسى القديم بتفوقى عندما كنا طالبين فى المدرسة الثانوية.

وحينما أفلست شركة والد زوجتى عام ٢٠٠٦، وتوليت أنا عملية تصفيتها وتسريح موظفيها، وجدتنى سعيداً لأن جزءاً من دائرة حصار زوجتى المحكم حولى قد انكسر، حتى لو كان ذلك على حساب مستوانا المعيشى المرتفع، فقد كنت أشعر شعور سجين الأشغال الشاقة وأنا أعمل عند والد زوجتى، وأسكن فى الفيلا التى أعطاه لابنته، وأستخدم سيارتها، وعندما تحررت بإغلاق الشركة و تصفيتها، لم أجد حرجاً فى القول لزوج ابنة عمتى إننى أقتنعت بصحة وجهة نظره حول انعدام جدوى السياسة، وأن السياسة لها

أهلها ، وأن رفاق النضال عملاء ، ولم أمانع في إبداء تذلل المحتاج أمام زوج ابنة عمتي الذى لم يتوان عن مساعدتى ، ولم يكف عن ذكر مساعدته لى تلك فى كل مناسبة أسرية تجمعنا عندما كان يسألنى بلا مناسبة :

- مرتاح فى الشغل ولا أقرص لك وذن الوزير ؟
كنت أحتمله لأن ذلك أهون كثيراً من يكون كل شيء بيد زوجتى ، لا حرية أبداً ، وكنت أقول له ضاحكاً ضحكة مفتعلة إن ضابطاً زميلاً له كان سبباً فى فصلى من الجامعة ، وأنه -بتعيني فى مكتب وزير الاتصالات- يصحح خطأ جهازه الأمنى ، لكى أذكره - خفية- بأننى كنت معيداً ولولاهم لكنت الآن عميداً فى الجامعة مثلما هو الآن عميد فى أمن الدولة ، ثم أستمّر فى ضحكة مفتعلة لا يستجيب لها هو ، ولا يستجيب لها أحد من الحاضرين من العائلة مجاملة له .

ربما يكون مستشار الوزير قد فر من رائحتى لا من سمعتى ؟ أو أنه فر من الاثنين معاً ؟ فالشيخان حاضران بقوة ، غير أنى -كالعادة- لم ألاحظهما وهما اللصيقان بى ، ولولا أن "فاتن" نبهتنى لبشاعة رائحتى ، لما كنت قد انتبهت لها ، ولولا فرار مستشار الوزير منى ، لما تنبهت لشىء كان شديد الوضوح ، لا يحتاج لتفسير ولا لتأويل : سمعتى المنحطة .

إن عام ٢٠٠٦ ذاك ، كان عاماً فاصلاً فى حياتى ، العام الذى طلقت فيه السياسة ، وانعتقت من القيد الذى يشدنى كعبد لدى

أسرة زوجتى، فقد شهد هذا العام استلامى لعمل جديد لا يديره أبوها، وبعده اقتنيت شقة لا تملكها أسرتهما، وكل ذلك بفضل سيادة عميد أمن الدولة المبجل وصاحب شركة العقارات الكريم... أين هما الآن والثورة مشتعلة بلا توقف لمدة ١٨ يوماً متصلة؟

وخطر لى أن أقمض دور عميل "مباحث أمن الثورة" لمعرفة أخبار مباحث أمن الدولة، بالاتصال بزواج ابنة عمتى للحصول على معلومات منه أوصلها لشباب الثورة، وخامرنى يقين بأن ذلك من شأنه أن يعيد لى ثقتى بنفسى بأنى أبداً لم أكن عميلاً لأمن الدولة، ولا رجلاً من رجالها رغم خدمتهم لى، واتصلت بابنة عمتى على هاتفها الغمول فجاءنى صوتها منكسراً حزيناً، تكاد تبكى على زوجها الذى لم يأت للمنزل منذ الخامس والعشرين من يناير، وأنه فقط يتصل بها ليطمئننها عليه ويطمئن على حالها وحال الأولاد، ويشكو لها من أنه لم يغير ملبسه ولم يعرف الماء طريقاً لجسده منذ هذا اليوم، فقد كسر الفوار خط المياه الذاهب للجهاز، وانتابتنى شماتة فيه، ها نحن مجدداً سواء، وامتألت فخراً بابنى الذى جعلنى وزوج ابنة عمتى سواء، رهائن عفونتنا الراهنة، ورأيت نفسى عميداً بالجامعة مثلما هو عميد بأمن الدولة.

وأبلغت ابنى بأن أمن الدولة لا يزال يعمل، وبكل ما قالته لى ابنة عمتى، فابتسم ابنى ولم يعلق سوى بكلمة واحدة:

— عارفين.

وكانت "فاتن" لا تزال تدندن بهتافات الشوار وهي تبتسم بجوارى، وساورنى قلق بأن زوجتى يمكن أن تهمل علينا الآن ببنتيها، لكننى عدت أطمئن نفسى إلى حقيقة أنها لن تأتى لأنها ضد الثورة، الثورة التى جعلت ابنها مجذوباً فى محرابها، وهى لا تكف عن شتيمة أولئك الصبيان قليلي الأصل الذين هانت عليهم عشرة الرجل الكُبارة.. الرئيس، ويصرون على إهانته وإخراجه من السلطة، وقالت لى وهى تنتحب باكية ليلة الثلاثاء الماضى عقب خطابه العاطفى:

- الراجل قال إنه هيعمل لكم كل اللي انتوا عايزينه، سيوه يقعد لسبتمبر، كلها كام شهر ويمشى بكرامته، عايزينه يسيب لكم البلد ليه؟ هى بلدكم لوحدهم، الراجل قال إنه مش هيسيبها، خدمها وهموت على أرضها.

كانت تحدثنى على الهاتف وابنى يرفع حذاءه أمام شاشة العرض الضخمة المنصوبة بالميدان، والتى تعيد إذاعة خطاب الرئيس العاطفى، وزوجتى لا تزال تطالبنى بأن أجعل ابنها يرد على اتصالها المتكرر، لا يستحق ابنها هذه الأم، وأنا أشجعها على البقاء فى المنزل وعدم النزول للميدان، حتى لا ترى عين ابنها التى أضاعها الرئيس، ولربما فضحتنى وفضحته أمام الحشود فى الميدان، وهى تحتضنه وتعنفه وتشتمه وتلومنى بقلة أدب ورثتها من سلالة أجدادها الباشوات، كما اعتادت أن تعايرنى دائماً مقارنة بين أصلى وأصها، وعائلتى وعائلتها، لا سيما عندما نكون مسافرين فى

طريق مصر الإسكندرية الزراعى، حيث تشير على امتداد البصر لمساحات شاسعة من الأراضي الزراعية وتقول إنها كانت ملكاً لعائلتها، قبل أن تنتزعها ثورة يوليو "الظالمة".

لو كانت تعي لكنت قد أفهمتها أنه لولا ثورة يوليو لما جاء للحكم هذا الرئيس الذى تحبه هى وتشفق عليه، والذى تفتح وعيى السياسى عليه وهو يخطب أولى خطاباته قائلاً إن الكفن بلا جيوب، وإنه لن يبقى فى الحكم أكثر من دورتين، وأذكر أنه أشار بإصبعيه الوسطى والسبابة تأكيداً على كلامه، ثم رفع باقى أصابعه وثنى الوسطى فقط موجهاً إياها ناحيتنا ونحن لا نشعر لاحقاً.

أما "فاتن"، فهى بلا موقف إلا ما أقوله لها، هى تؤمن بى تماماً، وتذكر أنى أعرف أكثر منها، ولا ترهق ذهنها فى الفهم، مكتفية بخلاصة القول فيمن تثق به، وكانت تثق بالتليفزيون المصرى قبل أن تعرفنى.

وانطلق صوت عبد الحليم حافظ عبر الميكروفون من منصة ائتلاف شباب الثورة:

- "ابنك يقول لك يا بطل هات لى انتصار"

وكان ابنى قد جاء ناحيتى ليطمئن علىّ فدنندت محرّفاً كلمات الأغنية:

- أبوك بيقول لك يا بطل هات لى انتصار

وضحكنا متعانقين.

(٨)

تنتابني قشعريرة عندما يداهمني خاطر طارئ -للحظة- أن كل ما جرى كان حلمًا ربما أصبح منه على كابوس والرئيس الحالي لا يزال يفتتح مشروعات الصرف الصحي، ووجهي ملوثًا لا يزال بمياه بالوعة انكفأت عليها.

لقد مر ١٨ يومًا على اندلاع الثورة، وهو -الرئيس- مثل كابوس جائم على الأنفاس لا يريد أن يغادر، وأنا بلا حل لنجاستي، أظاهر بالصلاة اليوم وكل ماسبق من أيام الثورة: الجمعة الماضية وجمعة الغضب التي انكسرت فيها ذراع الدولة.

وساءلت أكثر من مرة أكثر من شيخ أزهرى موجود معنا بالميدان إذا كان يحل لي الاغتسال تيممًا بالتراب فأكدوا لي جميعًا أنه لا يجوز، وقسوة الماء البارد تلغى أصلاً فكرة الاغتسال في النيل ليلاً

متدثراً بالليل ، وحمامات المسجد مزدحمة وكأنها أيام الحج ، وشقق المتعاطفين المساندين للثورة ، الموجودة قريباً من الميدان تكفى بالكاد لكي تقضى بها المتظاهرات حاجتهن ، واستحمام قيادات الحركات الكبرى .

وألح على ذهني حل النيل ، ومرت من أمامي وجوه أعرفها لقيادات الحركة الشيوعية ، وأعرف أن معظمهم لا يصلى ، ومن ثم لا حاجة لهم للاغتسال ، بل إن كثيراً منهم كان يكره الماء ، ويظل بالأسابيع بلا استحمام ، حدثتني نفسى بأنى لو استمرت معهم ولم أتركهم طالباً فى الجامعة ، لما ظل ضميرى يؤرقنى اليوم لعدم صلاتى كل هذه الفترة ، وكان رفيقى فى الخلية الشيوعية يقول لى إن اعتناق مبادئ الدين يورث الانقياد والخضوع ، فقلت له نعم هو كذلك ، لأن ذلك من ضرورات عمارة الأرض واستقرار الحياة فيها ، فالدين ضد التمرد ، ولا يستقيم عمل إلا مع خضوع من قبل مرؤوسين للرؤساء ، لذلك يريدنا الله أن يغرس فينا الخضوع له ، ومن ثم الخضوع لكل ذى سلطة ، فتسير الحياة وتستقر ، على أن يكون الخضوع فى الحق والعدل ، والتعاون على البر لا على النهب .

وكان ذلك المنطق فراقاً بينى وبينهم ، وكان هذا المنطق أيضاً هو نفسه دافعى للزواج من المرأة التى أحبته بجنون ، المرأة التى أفقدته مذاق الأشياء بخضوعى الدائم لها ، فهى صاحبة المأوى والمأكل ، وتحبث الثورة عليها ، وفعلتها بالتدريج مع "فاتن" .

أما أنت يا أيها الرجل الفاسد الذى لا يريد الخروج آمناً ، ولا

يريد فض الاحتقان الذى صنعته يداه، فقد لازمت كل أزماتى، منذ تخرجى من الجامعة عام ١٩٨١، كانت سنة تخرجى من الجامعة هى سنة توليه الرئاسة، وهى سنة طلاقى من الحركة الشيوعية بالجامعة، وهجرى لكل أشعار "أمل دنقل" المحرصة على الفعل، وكل أحاديث الثورة التى لن تجيء.

لقد صار رمزاً لكل انهزاماتى، وكنت أحياناً أقول لنفسى إننى صرت جزءاً منه، وهو بالفعل جزء منى، حتى أننا جميعاً -كشعب- أصبحنا نشبهه، ويبدو أن ذلك مرده أننى حلمت أكثر من مرة -وحلم به غيرى- أنه أبى، فعلاً، ربما لأنه يشبه أبى الذى كان سبباً فيما أنا فيه بسخطه علىّ، وكان ذاك الرجل سبباً فيما أنا عليه من تردّد وهوان اجتماعى ونفسى، لكونه رئيساً لى، والفرق هنا أننى أنا الذى لا أرضى عنه، بينما كان هو -يقيناً- راض عنا وعن استسلامنا المهزوم له.

ورغم كل هذا الكره الذى أحمله تجاهه، ارتعبت من الدعوة للزحف إلى القصر الجمهورى فى "مصر الجديدة" التى أطلقها بعض الثوريين أمس، خشيت من مواجهة ما، كنت أخاف أن يطل علينا الرئيس من شرفة القصر ممسكاً بمدفع رشاش ليبدأ مزاد الدم بقتلى أنا، سيعرفنى بالتأكيد، كما أعرفه، سيعرفنى بشبه الملامح بينى وبينه، سيعرفنى بحدسه الداخلى، وهو الذى زارنى فى منامى كثيراً، سيعرفنى بالتأكيد، ويطلق النار علىّ، بينما سيصوب ابنه مدفعه الرشاش ناحية ابنى قاصداً قتله، وتشبثت بابنى مبتهلاً إليه

ألا يذهب، واستجاب ابني لى لما رأى الدموع فى عينيّ، كنت قد ظننت أنى ودعت الخوف على ابني للأبد، وكأنى قد نذرته مثلما نذر إبراهيم النبى ابنه إسماعيل امتثالاً للرؤية الحقّة، نذرته أنا تعويضاً عما قصرت فيه، كنت سعيداً به وبنفسى وأنا أسير خلفه فوق كوبرى الجلاء يوم جمعة الغضب، ساعة مررنا بـ"دار الأوبرا" وكنا نغنى، ورغم كثافة الضرب بالقنابل المسيلة للدموع عند مدخل كوبرى قصر النيل، كنا نغنى، ولم أخش على ابني وهو فى مقدمة الصفوف، واصطف خلق كثير للصلاة، فجلست على الرصيف بجوار رجل بدين بجلباب مقلّم، نظر لى بنصف عين وهو يقول ببساطة:

- عيني يتنزف، الظاهر إنى انصبت... هو حضرتك دكتور؟
وقفت منادياً على طبيب، فجاءنى أحدهم بسرعة، وانكب على المتظاهر ذى الجلباب يعالجه، ورغم ذلك لم أكن قلقاً على أبني، ووقفت مستنداً على سور المدخل المؤدى إلى محطة مترو أنفاق "الأوبرا"، وكان اثنان من المتظاهرين الشباب ممن يبدو عليهم بساطة الحال والفتوة، يتكلمان عما فعلاه طوال اليوم، وكأنما يدفعان نفسيهما للاستمرار فى السير ناحية الميدان، باستدعاء تفاصيل النصر القريب السهل الذى حققوه على الشرطة عند ميدان سفنكس بالمهندسين، حيث جرت عمليات كرفر بينهم وبين الشرطة، يصعدون لهم أعلى الكوبرى الذى يقطع الميدان، ثم يأتونهم من أسفله، وعندما فرّ الضباط والجنود، عجز ضابط بدين

يحمل رتبة لواء عن الجرى، فتظاهر بالإغماء، وبدافع من الطيبة حاول الشابان إفاقته، فاستمر فى الادعاء، فلطمه أحدهما ضاحكاً، بعدما اكتشفا أنه مدع.

كانا يتحدثان مستندين لسور مدخل المترو، يتضحكان وكأنهما فى استراحة محاربين، ولاحظا إنصاتى لهما فانتبها وتوقفا، ومضيا بعيدين، هل وشت عيناي بذلك البريق الثعلبى الخفيف المنبعث من أعين المخبرين؟ أنا آخر من يجيب على هذا السؤال فى هذا العالم، لأننى لا أرى نفسى فى المرأة.

تذكرتهما جيداً بعد ذلك بساعتين، مساء جمعة الغضب، فرغماً عنى علقت ملامحهما فى عيني، رغم آلاف الملامح التى رأيتها ونحن زاحفون ناحية ميدان التحرير، بعدما انفتح الطريق، وانسحب الجنود إلى داخل الميدان، دقائق وكنا على الناحية الأخرى من الكوبرى، على بعد أمتار قليلة من الميدان، وكأننا الميدان هو دولتنا التى نريد أن نستردها، أو هو قلعتهم التى يدافعون عنها باستماتة، وما بين كر وفر، تناوبنا الهجوم والدفاع على مدى ساعتين، لكنّ ضغطاً فجائياً من الجنود دفعنا إلى التفرق ما بين الميدان وكوبرى قصر النيل، وبمرونة لا تناسب سنى قفزت من فوق سور إلى حديقة صغيرة تجاور جامعة الدول العربية، ووجدت جوا مختلفاً: شباباً وبنات يجلسون متحفزين لمعاودة الهجوم، وكانت تلك المنطقة تضم قبل أيام أيضاً شباباً وبنات يتبادلون الحب، فتمددت على العشب، وكأنى جندى استطلاع يتخفى كامناً على

بعد مترين من الشباب ، وبدا أنهم يخططون لشيء ما ، ونظروا إلى
وتبادلا نظرات ذات مغزى ، ثم انصرفوا ، فتذكرت ما فعله الشابان
المستريبان فى أمرى عند الأوبرا .

فعلوا نفس الفعل الطاعن فى شرفى الذى قام به الشابان ، أتراهم
شكّوا فى؟ وخالجنى ظن أصابنى بالغم والهم ، وسيكون قاتلاً لى لو
أن ابنى يحمل نفس الفكرة عنى ، أترى رفقاؤه السياسيون قالوا له :
أبوك رجل أمن دولة ؟ ترى هل أخفى عنى كل خططه وتحركاته خوفاً
منى ؟ خوفاً من أن أقوم بالإبلاغ عنه وعن رفاقه كمخبر ، وليس خوفاً
من أن أردعه كأب ؟ أترى نفسى تشى بالخيانة والدناءة ، الصفات
التي تنفر منى كل شريف ؟ مثل رائحتى الطافحة بالعفن ؟

ليلتها سار الشباب والبنات مبتعدين ، والتفتُ فرأيت شاباً بهيئة
ابنى من الخلف ، يمشى بالقرب من الكورنيش فى اتجاه ماسبيرو ،
فوئبت وجريت ناحيته ولحقت به عند فندق النيل ، وأمسكت
بكتفه فالتفت لى ولم يكن ابنى ، تأسفت له ، فقال لى لا بأس لأن
كل العيون لا ترى بفعل الدموع المنهمرة بسبب قنابل الغاز ،
وصدقت على كلامه وسعدت به قليلاً لأنه لم يهرب منى مثل
الآخرين ، بل كان لطيفاً وودوداً ، فمؤكد أنه لم ير فى ملامحى شيئاً
يجرح شرفى .

ولم أكد ألتفت خلفى حتى وجدت المئات يعبرونها مندفعين
ناحيتى هروباً من خطر قادم ، لقد فصلت الحكومة الكهرباء عن
أعمدة الإنارة بالميدان والطرق المؤدية إليه ، ولم يبق سوى نور خافت

يتسلل من المباني المحيطة، وهرولت مع الجموع ووسطها في اتجاه ماسبيرو شمالاً بمحاذاة شاطئ النيل، وقلت إنه من السهل أن تقوم الشرطة بعمل كماشة علينا من الجانبين، ولم يكذب يخطر ببالي ذلك الخطر، حتى وجدت سيارة ضخمة من ناقلات الجند، تجرى بأقصى سرعة في الاتجاه المعاكس لنا، فتفرقنا، وظننتها تهاجمنا، ولكنها كانت تهرب من المكان، والشباب يضربونها بالطوب والأحجار من الاتجاهين، وهى تترنح هاربة وبدا سائقها مذعوراً لا يألو على شيء سوى الهروب.

فجأة استضاء المكان بنور نار اندلعت فى مبنى قريب، وحملت فيه مذهولاً وفخوراً، كان المقر الرئيسى للحزب الوطنى، ولغت الشباب يلوحون لنا من داخله، صرخت من مسافة لا يصل إليهم منها صوتى، أن اخرجوا، وتذكرت آخر مرة سرت خلالها فى مظاهرة حاشدة انتهت بتفريقنا فى نفس هذا المكان أيضاً، وكانت اعتراضاً على غزو أمريكا للعراق منذ عدة سنوات، وتركنا الشرطة لمحوب الشوارع بعشرات الآلاف، وتصديت ساعتها لمحاولة بعض المتظاهرين تحطيم واجهة فندق النيل هيلتون المجاور لمقر الحزب الوطنى، فقالوا لى إنها من ممتلكات اليهود، ولم تفلح محاولتى فى إثنائهم، واستمروا يقذفون واجهة الفندق بالطوب وكرات النار، وجاءت عربة إطفاء صعد أعلاها فتيان وأضرمو بها النار فى نفس المنطقة، نعم نفس المنطقة التى صرخت فيها مساء جمعة الغضب فى الشباب وهم يتقافزون داخل مبنى الحزب المشتعل، وبدت هيئتى

كمجنون ينادى اللاموجود، كالعجوز على الدراجة منذ ربع قرن،
والنيران تندلع فى الطوابق تبعاً، والشباب يحتشدون أكثر
بداخله، وسمعنا صوت إطلاق رصاص حى، وقيل لنا أن الذى أطلقه
ضابط محاصر، وجاءنا شاب بصندوق من المياه الغازية الخارجة توأ
من الثلاجة، ووزعها علينا وهو يقول :

- غنايم .. غنايم .

وصرخ رجل من نفس سنى :

- حرام، كده حرام، مش من حقنا .

واستمر الشاب يخرج العبوات وهو يوزعها علينا مردداً وكأنه يغنى :

- غنايم .. غنايم .

وجلست تحت مظلة خنابية مخصصة للعشاق على الكورنيش،
وكان عدد من المتظاهرين ممن هم فى سنى يتحدثون ويبتهلون،
وبدت لهجة بعضهم ريفية، وقلت -من واقع خبرتى- إنهم من
الإخوان المسلمين الذين جلبهم التنظيم كمدد للمظاهرة للتركيز
على تجمعات بشرية كبرى فى المدن الكبيرة تحدث الصدى
المطلوب .

وجاء شاب حاملاً جهاز كمبيوتر، قائلاً إنه اغتنمه من مقر
الحزب، وقلت له إنه يضم بالتأكيد أسراراً، وطالبتة بألا يكسر
كلمة السر الخاصة بالجهاز إلا عند متخصص وطنى حتى لا تضيع
المعلومات الموجودة بداخله، وبدا أنه لم يهتم إلا بالحصول على
الجهاز، وتذكرت أننا كنا -فى وزارة الاتصالات- طرفاً فى اتفاق

لتوريد أجهزة لابتنوب للحزب بأسعار مميزة، ووفرنا لهم خطوط اتصالات شبه مجانية أيضاً، فالحزب كان يعنى الدولة، وقلت إن هذا الجهاز الذى استرده الشاب، من حقه هو أكثر من الحزب، هى بضاعته التى ردت إليه باعتباره من الشعب، وكان العجوز لا يزال يردد أن كل ذلك حرام أخذه.

لقد انخلع قلبي ملتاعاً يومها وأنا أرى الحريق يمتد من مقر الحزب إلى المبنى الكبير المجاور له، والذي يضم الجالس المتخصصة، بعضه يستحق الحرق، والبعض الآخر يجب الحفاظ عليه، وقد عدت إلى مربع مشاعرى المحايدة، ولكنها كانت مبررة هذه المرة، فالحريق يمكن أن يودى بأدلة إدانة، هل يكون من يقوم بالحرق مندسون تابعون للحزب الحاكم؟

أياً كان الفاعلون، فابنى لم يكن بينهم، أوقن أنه ليس بينهم، وسمعت أن المتحف المصرى الواقع خلف مبنى الحزب، تتم سرقة، فهرعت نحوه ويقينى أنه هناك يحميه، وبالفعل وجدته ممسكاً بيد الخرج الشهير الذى يحبه، والذي كان بدوره يوجه عدداً من الشباب، مشكلين حائطاً بشرياً للذود عن المتحف، فاطماننت، ومضيت مبتعداً ناحية وسط الميدان حينما شاهدت مدرعات الجيش هذه المرة وليس الشرطة وهى تخترق الميدان، يبرز فوقها رأس جندى يمسك براية يشير بها للأمام.

كانت تلك هى اللحظة الوحيدة التى يخرج فيها صوتى، ولكنه خرج مختنقاً كصرخة أخرس، وأخذت ألوح لجنود الجيش تترقق

الدموع فى عينيّ، وكأنما كنت -مثل كثيرين- أنتظر هذه اللحظة التى ينزل فيها الجيش، لكى نسلم على جنودنا يدّاً بيد، ونعانقهم فى ود وترحاب، مثلما فعل التوانسة مع الجيش الذى أجبر رئيسه على الهروب، وكنا قبل ذلك بساعتين نسأل بعضنا بعدما هربت كل الشرطة:

- هو الرئيس هرب ولا لسه؟ -

وكان بضعة شباب يهتفون وسط الميدان:

- عايزين الجيش يحمينا، الشرطة بتضرب فينا.

ورددتها خلفهم ملوحاً بذراعى، محاولاً استشعار لحظة فخر ولذة نصر. وكان مكتوباً على اللوحة المعدنية الخلفية للمدرعة: القوات المسلحة.

كانت المدرعات تجيء من ناحية المتحف المصرى متجهة إلى الجبهة الأخرى الموجود عندها مبنى وزارة الداخلية ومجلس الشعب، وكان قصف القنابل والذخيرة قد هدأ على الجبهة الأخرى المقابلة ناحية وزارة الداخلية، فيما يلى مجمع التحرير، ولاحظ الشباب أنه كلما وصلت مدرعة مكتوب عليها القوات المسلحة لتلك الناحية المقابلة، لا يلبث الضرب أن يندلع مرة أخرى، وتكرر تلاحظ ذلك على مدى نصف ساعة وصلت فيها للناحية الأخرى ثلاث مدرعات، ورأيت الشباب -اللذين كانا عند مدخل محطة المترو- يتناديان، وسمعت أحدهما يقول للشباب الذى كان لا يزال يكرر هتافاته المطالبة للجيش بأن يحمينا من الشرطة:

- يا جماعة، فيه كلام إن المدرعات دى بتوصل ذخيرة للداخلية، بعدما خلصوا الذخيرة اللي عندهم، والشباب هناك مش عارفين يدخلوا الوزارة بسبب الضرب اللي بيرجع بقوة تانى كل ما مدرعة تدخل الوزارة، مش هنعدى أى مدرعة من هنا .

من هنا؟ هنا الذى يشير عليه، هو وسط ميدان التحرير، أو بالأحرى الميدان كله، ولوهلة شعرت أنه ورفاقه ليسوا بشراً، لا فى طريقة كلامهم، ولا فى أسلوبهم الواثق، وجىء بجراكن بنزين لإحدى من أين، تعاونوا على سكبها على الأرض، وسمعت أحدهم يهتف فى:

- لو سمحت يا حاج اسحب معايا الحاجز ده .

كان يشير إلى حاجز من تلك الحواجز الحديدية التى يستخدمها المرور عادة لغلق الطريق، وسحبتهامعه لا إرادياً وألقينابها وسط الميدان، وكذلك فعل آخرون حتى صارت هراً من الحواجز، وسط خطوط من البنزين المسكوب على هيئة دائرة، واكتشفت أن مجموعات أخرى فعلت نفس الأمر فى الجهات الأخرى المؤدية إلى وسط الميدان، ولولا أننى كنت جزءاً من تلك المجموعات التى فعلت ذلك لكنت شككت أن فى الأمر سرّاً وتدبيراً عظيماً يجعلهم يتصرفون بتلقائية أقرب للتنظيم المحكم، وظهرت مدرعة مسرعة تصدى لها الشباب وهم يدارون الحاجز الحديدى، ثم أفسحوا لها الطريق فجأة لتعصدم بالحواجز، وتتعثّر قليلاً فأعطت شاباً آخرين مهلة لإضرام النار فى دائرة البنزين على الأرض، ودارت المدرعة حول

نفسها فيما بدا أن قائدها يحاول إيجاد مخرج من دائرة النار، مما أعطى لشاب مثل الصقر فرصة دقيقة واحدة انقض خلالها على المدرعة وتسلقها بخفة وضرب الجندي الذى يخرج رأسه منها ممسكاً بعلم، ثم حاول جرّه خارجاً منها، ففشل فتناول شعلة نار من رفيق له يقف على الأرض ورمى بها بداخل المدرعة، فاندلعت بها النيران وخرج منا جنديان، أمسك بهما الشباب وفتشوهما فوجدوا أوراقهما تقول إنهما من الحرس الجمهورى، فأخذوا منهما سلاحهما وألقوه فى النيل وتركوهما يهربان بعد أن خلعا ملايسهما.

ويبدو أن الطائفة الهليكوپتر التى لم تكن تكف عن الطيران فوق الميدان منذ دخلناه فى جمعة الغضب، قد أرسلت للقيادات تخبرهم بما جرى للمدركات المكتوب عليها زوراً القوات المسلحة، هل تكون خديعة، أو وقية بيننا وبين جيشنا العظيم؟

مساء جمعة الغضب، كفت المدرعات عن الحجى، لا سيما وأن مداخل الميدان المتقدمة كانت قد أغلقت بإحكام على يدى الشباب، وأحسست أنى مخبول عندما تذكرت صياحى الساذج ترحيباً بالعدو، فى المرة الوحيدة التى هتفت بها منذ اندلاع الثورة.

من ساعتها أصبح الميدان لنا، أقصد لابنى ورفاقه، والشعب من ورائهم، وكان مشهد احتراق مبنى الحزب الوطنى والمبنى العالى انجاور له، جليلاً ومهيئاً ودالاً، ظلت أنوار نيرانه تتسرب لنا من بين سحائب الدخان العالقة فى الهواء من أثر القنابل، وكأنها خيوط شمس تتسلل لنا من بين غيوم الشتاء، فاستنار ليل الميدان المظلم

حتى أشرقت اليوم بتباشير الصباح، والشباب لا يكفون عن محاولات اقتحام وزارة الداخلية، وفكرت في الاقتراب منها، وعبرت حديقة الميدان الواقعة أمام مجمع التحرير، ورأيت فتيات يرتدين خمراً وحجاباً ورجالاً عجائز، لكن الغالب عليهم أنهم كانوا من الشباب، وعندما سمعنا صوت إطلاق رصاص حي باتجاهنا، تراجعنا مذعوراً وسط النساء والعجائز وبقي الشباب يتقدمون، والمهم أن ابني كان هناك آمناً عند المتحف يحميه.

في ذلك اليوم - السبت التالي لجمعة الغضب - تمددت على عشب الحديقة الوسطى للميدان، ارتميت مكدوداً، وجلس بجانبى شاب لم يكمل العشرين بعد، يرتدى بنطلون جينز به عدة ثقبوب صغيرة، وقلت لنفسى يا لهذا الشباب! يتظاهر بأحدث صيحات الموضة، ولاحظ الشاب نظرتى فقال لى إنها ثقبوب من أثر الضرب بالخرطوش، وشهقت فرعاً.. كل هذه الثقبوب؟ وكان لون البنطلون قد تحول فى بعض أجزائه للون الأحمر من أثر دماء نزفها الشاب، وقلت:

- ليه هو انت كنت فى؟

- عند وزارة الداخلية.. ولاد الكلب مش عايزين يدخلونا.

وضحكت، وقلت له إنه يجب أن يأخذ استراحة محارب فى حراسة المتحف، فقال لى إنه لا أحد عند المتحف الآن، فقد تكلفت قوات خاصة من الجيش بتأمينه، وانتفضت مرعوباً على ابني، وسألته عن ابني، فنظر لى بدهشة وكأنى مخرف، ونظرت فإذا جموع الشباب تتجه كلها ناحية الشارع الذى تقع فيه وزارة

الداخلية، وخمنت أن ابني بينهم، فذهبت في نفس الاتجاه، وكلما أوغلت ازدادت الرؤية صعوبة، وزادت حالات الاختناق، وارتفعت أصوات الرصاص الحى، وهناك كان المشهد أشبه بساحة حرب، جرحى يتسندون على زملائهم، وشهداء أسلموا الروح تَوّاً.

إحساسى هو وحده الذى يمكن أن يقودنى إليه فى تلك المشاهدة، لكننى عبثاً حاولت إيجاده، وكنت أساند جريحاً لأخرجه من المكان ناحية مسجد عمر مكرم، حيث المستشفى الميدانى البدائى المقام بالجهود الذاتية، وأعود لأحمل آخر، وكم من شاب جريح مات بين يدى، وهو يلفظ الشهادة ويوصينى بأن أبلغ أهله.

فشلت فى إحصاء أعداد من حملتهم شهداء، ومن تسندوا على جرحى، وشق نور الشمس طريقه، وكان شهيد يخبرنى بأنه ترك طفليه ويوصينى بهما.. يوصينى أنا بهما، لا يعرف أننى أبحث عن ابنى الذى أخشى أن أجده جريحاً.

فى الصباح الباكر رأيت ابنى، يقف عند مدخل الميدان من ناحية السفارة الأمريكية يقيم حواجز، فاطمأنت، ووجدته لاحقاً يساعد فى إقامة منصة ائتلاف شباب الثورة مع رفاقه من مختلف الاتجاهات والمشارب السياسية، وارتفعت الشمس فى السماء فعاتت الاتصالات لأجهزة التليفون المحمول، فارتفعت نائماً على العشب داخل إحدى الخيام المنصوبة فى الميدان، تاركاً جهازى المحمول يرن مراراً، وقلت إنها لا بد وأن تكون زوجتى أو "فاتن"، لا بأس من بعض القلق على لمن يريدنى، أما من تريد ابنها، فلتتصل به على هاتفه المحمول، إن شاء الرد عليها.

(٩)

- هامشى أنا بقى يا حبى .

وانتصبت "فاتن" واقفة تنفض الغبار والعشب الجاف، عن
فستانها :

- على بال ما أوصل بيتنا يكون الليل دخل .

ومشيت بجانبها صامتاً ناحية ميدان "عبد المنعم رياض" وهى لا تكف
عن الحديث فى أشياء تافهة، لا ألقى لها بالاً، لا تناسب مطلقاً تلك
اللحظة الجليلة التى ننتظر فيها خبراً ساراً بتنحى الرئيس، كما تقول
الشائعات، ومشينا بمحاذاة المتحف المصرى، فأمسكت ذراعها وأوقفتها :

- هنا بقى، ابنى صد آلاف من بلطجية النظام .

ألقت إالىّ "فاتن" بنظرة من تلك التى لا تحمل أى مغزى،
فأضفت :

- أيوه، عمل من كرتونة مقطوعة خوذة لبسها على راسه،
ووقف طول النهار والليل يحذف عليهم طوب وأجبرهم على
التراجع، لغاية ما انحرفت عليه طوبة جامدة وقعت الكرتونة وشقت
راسه، راح خيَط الجرح ورجع تانى يضرب عليهم طوب .

وانسال فى ذهنى بيت نزار قبانى الجميل الجليل :

بهررو الدنيا وما فى يدهم إلا الحجارة

وأضاءوا كالقناديل

وجاءوا كالبشارة .

لكنها كانت تغتال "نزار" قائلة :

- أيوه شفتهم فى التليفزيون بيضربوا بعض بالطوب، وقلت يا
رب يصالحهم على بعض، دول مصريين ودول مصريين.. إلا انت
كنت فى أنهى ناحية يا حبيبى ؟
- طبعاً فى الناحية اللي فيها ابنى .

ولم أذكر لها أننى - كما فعلت فى جمعة الغضب - لم أجرؤ على
التقدم إلا متأخراً، عندما رأيت الدم ينساب على وجهه متفجراً من
رأسه كنافورة، تماماً كما ملأنى الغضب من قبل حينما رأيت عينه
تنزف، وتسد علىّ حتى أوصلته المستشفى الميدانى عند مسجد
"عمر مكرم"، ولم أخبرها بأنى حاولت منعه من العودة للجبهة
وفشلت كالعادة فذهبت معه إلى مقدمة الاشتباكات، وألقيت
بحجرين أحسست بعدهما أنى كتفى يكاد ينخلع، فنظرت معتدراً
لتمثال الشهيد "عبد المنعم رياض" فبدا معاتباً، وقد مات فى سن

أكبر من سنى على جبهة القتال ، وأذكر أنى قرأت أن الضابط المرافق له فى الخندق قال له :

- أنا انصبت يا فندم .

فقال له الشهيد :

- وأنا كمان منصاب .

وصمت الضابط دقائق ثم رجع يقول : أنا بانزف يا فندم .

فلم يرد الشهيد ، فقد سكن جسده ، لكنه انتصب بعدها بنحو ثلاثين عاماً فى الميدان لواء صخرياً صلباً ينظر إلينا ونحن نقاوم على مدى يومين ، نقاوم أناساً ليسوا منا ، ليسوا من مصر ، بالتأكيد ، ضربونا يومها لأننا نطالب لهم بحقوقهم وحقوقنا فى حياة حرة كريمة ، وكان الشهيد ينظر ويومئ إلينا ، مثله لو نطق فسيقول إننا نحن الحق وهو يشير ناحيتنا .

لم أجد قدرة على رمى مزيد من الأحجار ، فاكتفيت بحمل أجولة الأحجار للرماة ، وكنت أخلع بلاط الرصيف وألقيه على الأرض بعنف حتى يتفتت إلى عدة قطع ، ثم أقوم بتعبئته فى جوال وأهرع به إلى ابنى ورفاقه ، وتذكرت شائعات تقول إن ذلك البلاط يورده للدولة مصنع مملوك لشريك ابن الرئيس ، فيزداد عنفى فى إلقائه على الأرض ليتفتت بقوة .

وقطعت "فاتن" استرسالى فى خواطرى وذكرايتى القريبة عندما مدت يدها لتسلم على مودعة إياى ، وراقبتها حتى اتجهت إلى حيث يقف الميكروباس ، وأنا أبادل النظر لها ولتمثال الشهيد ، ودعتها

دون حتى أن أسألها أو تسألني عن موعد لقائنا الجديد ، لم أهتم ولم تهتم حتى بالسؤال عن الوقت الذى سنستكمل فيه إجراءات زواجنا .. هل انتهت علاقتنا بنصف اتصال جسدى ؟

وعدت أمشى فى الميدان الذى تروح فيه وتجىء نفس الوجوه التى اعتدتها تمشى باطمئنان فى الميدان ، وإحساس يخالجنى بأن شيئاً ما -جللاً- سيقع اليوم ، فقد علمت ترواً أن المجلس العسكرى للقوات المسلحة قد انعقد بكامل هيئته وبدون رئيسه -رئيس الجمهورية- الذى تحاصره جموع المتظاهرين الآن عند القصر الجمهورى منذ ليلة أمس ، وعلمنا أن الدبابات استدارت بفوهات مدافعها ناحية جدران القصر الجمهورى بعدما كانت توجهها ناحية الشارع ، وكان لذلك دلالة كبرى كما كان للانعقاد مغزى كبير .. هل يعنى ذلك أن الانعتاق قريب ؟

ووجدت نفسى مجدداً وسط ابنى ورفاقه ، فى نفس المنطقة بالميدان التى كان يمشى عليها العجوز بدراجته منذ سنوات ، فبدأت ألف حول نفسى راقصاً وهاتفاً :

- قول ولا تخش القول قول .. الرئيس هو الخبول .

ولم يرددها ورائى أحد من الشباب الثائرين ، وبدوت مثل كائن خرافى من عصور سحيفة ، يتكلم لغة لا يفهمونها ، تمليت فى أعينهم المتلألئة بألق سماوى ، وكانت من بينهم عين ابنى الوحيد -الوحيدة، التى بقيت له ، وقد كان له قبل جمعة الغضب الماضية اثنتان ، وليس لى أمس واليوم وغداً غيره ، وخت فى أعينهم نظرة

ساحرة، وعلى أفواههم ابتسامة مكتومة ساخرة.. شفقة بالغة على رقت في عين ابني الذي خلع كوفيته الفلسطينية ونزل من فوق سور الميدان إلى جوارى تماماً وكأنما يغطي ليذارى عارى ويراقصنى هائفاً:

- كلموه عبرى.. مايفهمشى عربى.

- ارحل يعنى امشى.. ياللى ما بتفهمشى.

وكانت أول مرة تقال، وخطر لى أنها موجهة لى دون قصد من ابني، فضحك الجميع ورددوها وراءه بانتشاء، وكنت أدور حول ابني وألح في عينه الفائرة بالفرح والفخار نظرة عتاب ولوم واستقلال عني واستقلال بى.. عينه الواحدة، عينه الباقية، ترى الآتى أفضل من عينيّ اللتين لم أدرك بهما شيئاً ذا قيمة طوال عمريّ المديد، لم أر بهما سوى اليأس المطبق، وقلت إننى لا بد وأن أرحل، حسناً، لا بد أن أرحل مع الرئيس، فأنا من بقايا عصره الكسير. حسناً، لا بد أن ألمم انكساراتى وهتافتى القديمة وإحباطاتى وأرحل معه.. كفاية.

كنت ألجأ ناحية النيل خارجاً من الميدان، متخذاً قرار الاغتسال فيه، وقد أطبق الظلام على كل الأرجاء، وارتج ميدان التحرير فجأة بالهتافات والتكبيرات، فتوقفت وحاولت أن أسأل كثيرين يتقافزون حولي ويتراقصون ويسجدون على الأرض، ويتعانقون، وبعد أسئلة كثيرة قال لى أحدهم إن الرئيس تخلى عن الحكم، ووجدتني في منطقة اللاشعور، واللاعقل، فلم أهتف أيضاً ولم

أسجد ولم أكبر ، فقط نظرت للسماء الصافية ، ثم أعدت النظر في الوجوه التي تملأ الميدان ، وبين السماء والميدان ، انطلقت ألعاب نارية بهية بهيجة مبهجة كان وميضها ينعكس متلألئاً على الوجوه . كل ما قررته واستطعت فعله أنى استمرت ماشياً ناحية النيل مقررًا الاغتسال في مياهه ، رغم أن ظروفًا استجدت على اتخاذى قرارى ذاك ، لكن ذهنى كان مبرمجاً غير قادر على التفكير فى أكثر من اتجاه وفى أكثر من قرار ، وكأنما قد هذه التعب وأرهقه التفكير ، ومضيت أحث الخطى ناحية النيل ، وكنت الوحيد الخارج من الميدان ، بينما يتدفق القادمون بالآلاف جماعات وأفراداً ، راكبين سياراتهم وراجلين ، يهتفون ويكبرون ويتعانقون ، وأنا الخارج الوحيد ، قاصداً النيل ، وعند أسد قصر النيل الأيمن -بالنسبة إلى- انثنيت وهبطت ناحية بقعة مظلمة من الشاطئ ، وربطت بضلع مزق من القماش المتناثرة على الشاطئ ، وصنعت منها حبلًا ربطت طرفه فى شجيرة قريبة ، كانت ومضات الألعاب النارية تتراقص احتفالاً فوق قمم الأشجار ، وخلعت ملابسى كلها ، ونزلت النيل متدثرًا بالليل ، وممسكًا بالطرف الآخر من القماش ، الماء شديد البرودة لكننى قادر على احتماله ، وسكنت الدنيا وسكتت أصوات الهتافات والتكبيرات وانفجارات الألعاب النارية ، عندما غاص رأسى تمامًا فى المياه ، لم أنزل يوماً فى بحر ولا حتى حمام سباحة ، كنت أخشى العوم وغير راغب فى تعلمه ، وكل علاقتى بمياه البحار والأنهار ، وحتى حمامات السباحة ، هى الاستمتاع بمراها من بعيد .

تعود الأصوات أقوى مما كانت ويزداد ضجيجها كلما ارتفع رأسى عن الماء وخرت قطراته من أذنى، ورأيت من بين بقايا قطرات المياه التى تغطى عينيّ كوبرى قصر النيل يحمل على ظهره جموعاً بلا نهاية تترى ناحية الميدان، وأنواراً تنفجر فى السماء مثل قمم نخل بألوان شتى رائعة، الأعداد تتزايد والأصوات تتعالى، ثم صمت كل شيء مرة أخرى، عندما غصت مجدداً، ثم انفجرت الأصوات عندما أخرجت رأسى، وراقت لى اللعبة، رغم أنى أعلم أنى تطهرت من أول غطسة، وتبددت مخاوفى من انقطاع الحبل الهين، واختفى خوفاً على ابنى، وزال رعبى من الماء، وكررتها: مستمتعاً بسكون العالم تحت الماء، ثم انفجاره بالهتافات والتكبيرات ومرأى الجموع فوقه، وكأنما تولد فجأة وتختفى فجأة، أغطس وأقب، تحرر... تحرر، أغطس فتأتينى زوجتى وأبوها و"فاتن" و"منعم" و"منيب" وزوج ابنة عمتى ضابط أمن الدولة والوزير وصاحب شركة المقاولات، وأقب فأسمع هدير الجموع ومرآهم الزاحف نحو التحرير وانفجار الأضواء فى السماء وطلقات مسدس الألعاب النارية، وصوت ابنى يرن فى أذنى وكأنما يأتينى صدهاء:

- الشعب.. خلاص.. أسقط النظام.

وتمددت على ظهرى فوق الماء مستسلماً للموج ومستكيناً لوقع دفقاته وهى تضرب جنباتى، وطفا جسدى وارتفعت قدماى وضحكت وأنا أمسك بالحبل بيدى الممدودتين فى اتجاه رأسى، ونظرت للسماء، وخُيِّلَ إلى أننى أمضى بعيداً عن الشاطئ، والتفتُ

فرايتنى لا أزال فى موضعى ، لم أبرح ، وكأننى ما زلت فى المنطقة
الخايدة بين الشك واليقين ، بين الفسق والدين ، بين النجاسة والطهر ،
بين الإقدام والإعراض ، بين الوطنية والخيانة ، بين الوفاء والانفلات ،
بينى وبين ابنى ، فتطلعت للسماء بعينين وجلتين خجلتين ، وهى
تتوضأ بنور البهجة القادمة من كل صوب ، وقلت إنه من المناسب
الآن الرحيل إلى السماء ، فلا مكان لمثلنى على الأرض الجديدة ،
متمنياً لعين ابنى الباقية ، البقاء والرؤية الثاقبة .

(تمت)

للتشر في السلسلة :

- * يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء . ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلاً عليه العمل إن أمكن .
- * يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
- * السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبِع الكتاب أم لم يطبع .

إصدارات مساملة حروف

- 1- اليوم السدى.. بدأ عطية معبد
- 2- أو ما يشبه العشق فدوى حسن
- 3- ناسى حاجة السعيد المصرى
- 4- حكايات من بلاد البموزيا محمود سيف الدين
- 5- أعمى يقرأ كتابه.. بتصرف محمود الحلوانى
- 6- كتاب السطور الأربعة حمدى الجزار
- 7- حبيبتى مروة نصر عبد الرحمن
- 8- مسامرة جيدة لأرق طويل عصام الزهيرى
- 9- نظرة تانية للملامح ع الخريطة محمد ربيع محمد
- 10- فى المستقبل القريب جداً هشام محمود
- 11- للموت مُنعة سيئة سالم أبو شبانة
- 12- قربتنا تصنع أسطورة محمود أبو راجح
- 13- امرأة فى المنام محمود أبو عيشة
- 14- بنات قبلى ماهر مهران
- 15- خذ كتابى بيمينك سوزان عبد العال
- 16- لوزة عبد الستار حتيتة

شركة الأمل للطباعة والنشر

(مورافيتلى سابقاً)

ت، 23904096 - 23952496

يعتمد كاتب هذه الرواية على لغة تتناسب
تماماً وعنوانها البسيط الذي يوحي لقارئه منذ
اللحظة الأولى بمدلول لا يمكن أن يكون هو
المحور الأساسي لهذه الرواية، فالرواية تمتلك
من الأحداث بما يوقفنا أمام مرآة النهضة
لنستشرف ما يمكن أن يوضع في الأفق البعيد
لكاتب يجيد المراوغة والسعي عكس اتجاه
التوقع، هذا فضلاً عن تراكيبه الممزوجة
بحكمة التجريب وبراعة التناول والقدرة
الفائقة على الحكى المشوق.

Bibliotheca Alexandrina



1209455

